البرامكة فى عيون شعراء العصر العباسى الأول

د . سليمان محمد سليمان
أستاذ الأدب والنقد المساعد بآداب سوهاج

تمهيد:

والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

وبعـــد:

فقد شهد العصر العباسي الأول كثيراً من التغيرات والتقلبات التـي كان لها أثرها الفعال في حياته السياسية والأدبية، حيث ظهرت بعض الأسر التي ساعدت العباسيين وساندتهم في قيام دولتهم، وعملت تحت إمرتهم، فكان لها دورها الكبير والمؤثر في شتى شئون الحياة، وقد تركـت هـذه الأسـر بصماتها القوية وآثارها العظيمة علي الحياة السياسية والثقافيـة والأدبيـة. وتأتي فى طليعة تلك الأسر "آل برمك"، فهى من الأسر التـي ذاع صـيتها وعلا علي الزمان نجمها، وساد بين الناس مجدها.

ولقد جاءت أسرة البرامكة علي رأس تلك الأسر، فهي من أعظمهـا تاريخاً، وأشرفها رفعة وأكثرها تأثيراً في صدر الدولة العباسية، حيث كانت للبرامكة مكانتهم السياسية والأدبية التي لا تعلوها مكانة إلا مكانة الخلفاء من بنى العباس، فقد كان البرامكة في أيام عزهم ومجدهم من أصحاب الـوزارة والإمارة، حتى كثر حسادهم والناقمون علـيهم، وخـشي الخلفـاء بأسـهم وسلطانهم.

"فالبرامكة أسرة فارسية شهيرة، تولي عدد من رجالها المناصب العالية في الإدارة والوزارة في العصر العباسي[1]. وأفاءوا على الناس بظلالهم، وأفاضوا عليهم بخيراتهم ونشروا العدالة فيما بينهم، ورفعوا راية الإسلام عالية خفاقة أينما ذهبوا وحيثما حلوا؛ ومن ثم كال الشعراء لهم مدحاً جماً جيداً معظمه. ولمَ لا؟ وقد صاغه هؤلاء الشعراء وهم راضون، مطمئنون، غير واقعين تحت تأثير، إلا ما أحسوا به نحو البرامكة من فضل عظيم، واحترام كبير، وتقدير بالغ للدور الذي قام به البرامكة فترة توليهم الوزارة وتقلدهم السلطة..

وقد يكون التفاف الشعراء من أسباب نكبتهم، وما أصابهم علي يد الرشيد، مع أنهم كانوا من أحب الناس إليه، وأقربهم إلي نفسه وكانت الخلافة في زمانهم وتحت إمارتهم في أزهى عصورها، وأبهى حُللها، لكنه الحكم والسلطان، ومحاولة حمايتهما والحفاظ عليهما، فعندما أحس الرشيد أن الأمر كاد يخرج من يده، وشك في أن البرامكة أصبحوا يمثلون خطراً عليه، وبدأوا ينافسونه في الحكم والسلطان، وحب الرعية، فضرب ضربته القوية التي أصمت آذانهم، وأفقدتهم سلطانهم، وقطعت أوصالهم وعجلت بنهايتهم وزوال قوتهم، "فما زال الشعراء يتناشدون مدائح الفضل، وأخيه، وأبيه، منذ أسلم الرشيد يحيى مقاليد الخلافة فى سنة ١٧٠، حتى أوائل صفر سنة ١٨٧ إذ نكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة....، وكان طبيعياً أن يبكيهم الشعراء، وأن يذرفوا عليهم الدموع مدراراً، لما أغدقوا عليهم من النعم والصلات

---

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية لمحمد فريد وجدي جـ ٢/ ١٥٣، طبعة مصر، ١٩١١م.

السنية"[1].

ولولا تلك النكبة التي لحقت بالبرامكة، فقضت عليهم، ومحت آثارهم، وبددت أمجادهم، لكان لهم شأن آخر غير ذلك الذي صار إليه أمرهم، على الرغم من قصر مدتهم التي قضوها في الحكم، حيث " كان مدة دولة البرامكة وسلطانهم، وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف هارون الرشيد إلي أن قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً"[2].

وقد حاول الرشيد أن يتخلص مما أحدثه البرامكة في الحياة السياسية والأدبية فعمد إلي أن يستأصل ما غرسوه في نفوس الناس خلال فترة إدارتهم لشئون الخلافة والحكم، وعمد في ذلك إلي الشعراء والأدباء فبالغ في استعمال التهديد والوعيد، والترغيب والترهيب ليمحوا آثارهم، ويرغموا الناس علي نسيانهم ، ولكنه فشل في تحقيق ذلك؛ حيث ظلت أصوات الكثير من الشعراء تصدح بمدحهم، وتتغني بأمجادهم، وفضائلهم، وتثني ثناء جميلاً علي ما قدموه للحياة السياسية والأدبية والثقافية.

فلقد حفل ديوان شعرنا العربي بما قاله الشعراء في مديحهم ورثائهم وهجائهم، حيث انطلق خيال الشعراء يصور الحقائق التاريخية التي تشهد لهم، ممزوجة بالعاطفة القوية الجياشة. وجاء الرثاء – وهو نتاج عاطفة قوية وانفعال شديد– معبراً صادقاً. ولا غرابة فهو من أصدق العواطف الإنسانية تعبيراً عما تكنه الأفئدة، وسبيله "أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً

---

(١) "العصر العباسي الأول، للدكتور شوقي ضيف ص ٣٢٩ الطبعة الثامنة، دار المعارف.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي جـ٢/ ٣٠٠، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، ١٣٨٧هـ،/ ١٩٦٧م.

بالتلهف، والأسف والاستعظام"[1].

هذا، وقد اختلف موقف الشعراء منهم بعد رحيلهم، فمنهم من ظل وفياً لهم باقياً علي عهدهم لا يخشى ما يجره ذلك الوفاء من غضب الرشيد وسخطه عليه، ومنهم من كان يخشى الرشيد وسلطانه، فالغز فى رثائهم حتى لا ينكشف أمره فلم يعز شعره، وإنما أرسله دون عزو لأحد.

وبعض هؤلاء الشعراء كان يدون شعره فيهم علي الجدران والخرائب، وعلي قصورهم ودورهم الخالية حتى يراه الناس، ويسمعه الرشيد نفسه؛ بل وجدنا من الشعراء من رثاهم علي الرغم من كرهه لهم وغضبه عليهم فكان ذلك أصدق الرثاء وأخلصه. كما وجدنا من الشعراء من تشفي بهم، وفرح في مصابهم، ولكنه رأى فى ذلك العبرة والعظة – ومن كل هذه الأشعار – مهما اختلفت دوافعها وتوجهاتها – نستطيع أن نقف على مكانة البرامكة ومنزلتهم. متخذين الخطة العلمية الآتية وسيلتنا لتحقيق غاية البحث وهدفه؛ وهى:

أولاً : نبذة عن البرامكة.

ثانياً: شعر المديح فيهم.

ثالثاً: رثاء الشعراء لهم.

رابعاً: موقف الشعراء الناقمين عليهم.

خامساً: الخاتمة.

ثبت المصادر والمراجع.

---

(١) العمدة لابن رشيق القيرواني جـ٢/ ١٤٧، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، دار الجيل بيروت ، لبنان، ١٩٧٢م.

أولاً : نبذة عن البرامكة

تعد أسرة البرامكة من أعظم الأسر تاريخا وأشهرها أسماً وأكثرها تأثيراً في صدر الدولة العباسية، حيث إنها تأتي علي رأس الأسر الفارسية التي ساندت العباسيين في بداية أمرهم، وساعدتهم علي تأسيس دولتهم، وعملت تحت قيادتهم "وتنسب هذه الأسرة إلي جدها برمك وهو من مجوس بلخ، وكان يخدم النوبهار، وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران، فكان برمك وبنوه سدنة له.

وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يُعلم هل أسلم أو لا؟ لما جاءت الدعوة العباسية خرسان كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها وزعمائها، وكان ذا صفات عالية أهلته للسيادة ورفعة القدر"[1].

وقد قام البرامكة بدور كبير في الحياة السياسية في العصر العباسي حيث استطاع خالد بن برمك أن يؤسس البيت البرمكي الذي قدر له أن يعيش فترة من الزمن سيطر فيها علي مقاليد الحكم وأمور الخلافة.

ففي عهد هارون الرشيد تمكن البرامكة من طبع بصماتهم القوية، وترك آثارهم الواضحة علي شتى مظاهر الحياة السياسية والأدبية والثقافية، حيث سطع نجمهم وعلا صيتهم وبرز عدد من رجالهم علي مسرح الأحداث السياسية والثقافية من أمثال يحيى بن خالد "الذي قلد ابنه الفضل المشرق كله من النهر إلي أقصى بلاد الترك، وقلد ابنه جعفر المغرب كله من الأنبار إلي أفريقيا[2].

وقد عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد إلي يحيى بن خالد البرمكي بإدارة شئون الخلافة، وطلب إليه أن يتصرف في أمورها كما يرى دون الرجوع إليه وكان يخاطبه "يا أبتاه" تقديراً له.

"يا أبت أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فأحكم بما ترى، واستعمل من شئت، وأعزل من رأيت، وأقرض "أعط راتباً" لمن رأيت، وأسقط من رأيت، فإني غير ناظر معك في شيء"[3].

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية، "الدولة العباسية" للشيخ محمد الخضري، ص١٣٧، تحقيق وتعليق إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية.

(٢) العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص ٢٣.

(٣) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٦/٤٤٢ :٤٤٤، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، وأنظر أيضاً العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف، ص ٢٣.

هذا "ويحكي أنه ورد علي الرشيد يوماً كتاب صاحب البريد بخرسان، ويحيى بن خالد بين يديه، يذكر فيه أن الفضل بن يحيى تشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى، وقال له: يا أبت أقرأ هذا الكتاب، واكتب إليه كتاباً يردعه عن مثل هذا[1].

وهكذا علا شأن هؤلاء القوم "وقلما نجد للعباسيين وزيراً غير فارسي وهو شيء طبيعي، إذا كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة، ويرقون إلي أعلي المناصب... وأول من أتخذه العباسيين وزيراً منهم أبو سلمة الخلال حتى إذا قضي نحبه اتخذ السفاح بعده خالد بن برمك[2].

وقد كان خالد بن برمك من أشهر شخصيات البرامكة وأكثرها ظهوراً في تلك الفترة، وكذلك أولاده:يحيى، والفضل، وموسى؛ هؤلاء جميعاً قد اشتهر أمرهم وعلا قدرهم وكان لهم دور بارز في إدارة الخلافة، وإن كان "لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروره وبُعد همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه وفيمن ذكرنا يقول أبو الغول الشاعر:

أولادُ يحيى بن خالد وهُمْ أربعةٌ سَيِّد ومتبوعُ
الخيرُ فيهم إذا سألْتَ بهمْ مُفَّرقٌ فيهمُ ومجموعُ [3]

هؤلاء هم أعمدة أسرة البرامكة وساداتهم، وأصحاب الرأي والسلطان

---

(١) مروج الذهب للمسعودي جـ٢/٢٩١.

(٢) العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ص ٢٣.

(٣) مروج الذهب للمسعودي جـ ٢/٢٩١.

منهم، ومن ثم سيكون الحديث عن كل واحد منهم علي حده مشيرين إلي منزلته وعظيم مكانته.

١- خالد بن برمك:

يُعد خالد بن برمك هو المؤسس الأول لأسرة البرامكة وصاحب عزهم ومجدهم، ولد عام ٩٠هـ، وهو أول من اعتنق الإسلام من البرامكة وقد انضم إلي صفوف الموالي الذين ناصروا الدعوة العباسية، وعندما وصلت خراسان، لم يلبث طويلاً حتى صار من كبار دعاتها وزعمائها المبرزين . فلما انتهت الحرب بهزيمة بني أمية، وظهرت إلي الوجود الدولة العباسية، بدأ نجم خالد البرمكي في التألق والظهور، فاستوزره أبو العباس السفاح بعد مقتل أبي سلمه الخلال، فكان أول من ولي الوزارة من البرامكة.

ويذكر أنه لما عقدت البيعة لأبي العباس السفاح، وحضر خالد بن برمك لمبايعته، فرأي فصاحته، توهمه من العرب فقال له: ممن الرجل؟ فقال له مولاك خالد بن برمك وقص عليه قصته وقال أنا كما قال الكميت بن زيد:

فَماليَّ إلا آلَ أحمدَ شيعَةٌ ومَالِيَ إلا مَشْعَبُ الحقِّ مَشْعَبُ

فأعجب به أبو العباس، وأقره علي ما كان يتقلد من الغنائم وجعل إليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند"[١].

وقد كان حسن السيرة موصوفاً بالعدل يقول عنه أحمد بن محمد بن سوار الموصلي: "ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك، من غير أن تشتد عقوبته، ولا نرى منه جبرية، ولكن هيبة كانت له في صدورنا"[٢].

وفيه يقول أبو عبيد الله الوزير: "ما رأيت أجمع من خالد له جمال أهل الشام، وشجاعة أهل خراسان، وأدب أهل العراق، وكتابة أهل السواد"[٣].

---

(١) الوزراء الكتاب الجهشياري ص ٨٩ تحقيق مصطفي السقا وآخرون، الطبعة الأولي، مطبعة الحلبي، مصر، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

(٢) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية، للشيخ محمد الخضري ص ١٣٧.

(٣) خاص الخاص للثعالبي جـ٤/١٦١، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٩٦م.

٢ – يحيى بن خالد:

" وأما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً وجوداً رباه أبوه فأحسن تربيته، وكان مولده سنة ١٢٠هـ، فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنتي عشرة سنة فتربي في كنف الدولة، وكان عضد أبيه في ملماته وشدائده، وقد اختاره المنصور لولاية أذربيجان سنة ١٥٨.

قال له: أردتك لأمر مهم من الأمور واخترتك لثغر من الثغور وكانوا لايولون ثغورهم إلا من كانت ثقتهم به عظيمة" [١] .

وكان يحيى بن خالد أريباً لبيباً، صائب الرأي، حسن التدبير، جواداً يسابق الريح كرماً وجوداً، حليماً عفيفاً، وقوراً مهيباً، تغنى الشعراء بفضائله ومكارمه، وتتجلى أخلاقه وسجاياه في وصاياه لأبنائه حيث كان يوصيهم بمحامد الأخلاق، ويحبب إليهم الفضائل ويغريهم بالمكارم، يقول في إحداها "لابد لكم من كتاب وعمال وأعوان، فاستعينوا بالأشراف، وإياكم وسفلة الناس، فإن النعمة علي الأشراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر" [٢].

لا شك أن الذي يقصده يحيى بن خالد بالأشراف: أي الفضلاء من الناس وذوى الأمانة والأخلاق منهم.وجاء عن الأصمعي بعض ما سمعه من يحيى بن خالد ومما يكشف عن نفسيته ويؤكد عظم أخلاقه قوله: "سمعت يحيى بن خالد يقول: الدنيا دول والمال عارية، ولنا بمن قبلنا أسوة، وفينا لمن بعدنا عبرة[٣].

وكان مُوَيْس بن عمران يقول: "لم أر أنطق من أيوب بن جعفر ، ويحيى بن خالد."[٤]

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضري ص ١٣٨.

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٧٩.

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموي جـ٢٠/٩، مطبعة دار المأمون بالقاهرة، ١٩٣٧م.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ جـ١/١١٥ بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

ويصف سهل بن هارون بلاغة يحيى وولده، فيقول: " لو كان الكلام متصوَّراً دراً، ويلقيه المنطق جوهراً لكان كلامهما، ولقد غبَرتَ معهما، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامها، وهم يرون البلاغة لم تستكمل إلا فيهما، ولم تكن مقصورة إلا عليهما، ولا انقادت إلا لهما، وإنها للبابُ الكرم، عتْق منظر، وجودة مخبرٍ، وسهولةَ لفظٍ وجزالةَ منطق، ونزاهةَ نفسٍ، وكمال خصالٍ"[١].

وهكذا اتصف يحيى بن خالد بجملة من المحامد وتحلي بعظيم السجايا وكريم الصفات، وتنوعت مآثره التي وجد فيها الشعراء مجالاً فسيحاً لأشعارهم، فأسبغوا عليه مزيداً من المديح والثناء، "وقد كان يحيى بن خالد ذا علم ومعرفة وبحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل"[٢].

٣- الفضل بن يحيى:

هو أبو العباس الفضل بن يحيى البرمكي، ولد قبيل مولد الرشيد بسبعة أيام إذ كان مولده لسبع بقين من ذي الحجة عام ١٤٨هـ، وكان هو والرشيد أخوين من الرضاع، حيث أرضعت أم الفضل الرشيد. كما أرضعت الخيزران الفضل [٣].

ولاه الرشيد خراسان وثغورها عام ١٧٨هـ، فأحسن السيرة بها وأزال الجور منها وبنى بها المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البغايا، وزاد في عطايا الجند، ووصل الزوار والقواد والكتاب، في سنة تسع بعشرة آلاف درهم، ثم عاد إلي العراق، بعد أن وطد الأمر بها للعباسيين، فتلقاه الرشيد بحفاوة بالغة، وأكرمه غاية الكرم وأمر الشعراء بمدحه والخطباء بذكر فضله فكثر المادحون له[٤].

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني جـ١/٣٦٤، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

(٢) مروج الذهب للمسعودي جـ٢/٣٩٣.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٣/١٩٧، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

(٤) تاريخ بغداد للبغدادي جـ٣/٣٣٤، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٩هـ، ١٩٣١م.

وقد كان الفضل يتمتع بكفاءة عالية، وشجاعة فائقة، ولذلك ولاه الرشيد كور الجبال، وطبرستان، وجُرجان والري عام ١٧٦هـ، وحين خرج يحيى بن عبد الله بن الحسين العلوي رضي الله عنه ببلاد الديلم عام ١٨٦هـ ندب له الفضل، الذي كاتبه ورفق به واستماله إلي الصلح والمهادنة فأجابه يحيى العلوي إلي ما أراد علي أن يكتب له الرشيد أماناً بخط يده فكتب الفضل للرشيد بما صنعه مع يحيى فاستحسن منه ذلك، وسره ما قام به من العمل.

وقدم يحيى بن عبد الله العلوي في صحبة الفضل إلي بغداد، ولقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير[١].

وهكذا يتضح لنا أن الفضل بن يحيى كان علي درجة كبيرة من العلم والأدب وكانت له خدماته وجهوده الكبيرة التي بذلها في خدمة الخلافة والخليفة، فكافأه الرشيد بأن أسند إليه الوزارة مدة ثم نقلها إلي أخيه جعفر، وولاه بدلاً منها بلاد المغرب من الأنبار حتى أفريقيا، فشخص إلي عمله بها، فأزال الجور وبسط العدل وأشاع الرخاء والأمن بين ربوعها.

وبذلك يكون الفضل قد أدى جهداً كبيراً وقام بعمل ملحوظ، في محيط السياسة العباسية، وكان له تأثيره الواضح علي مجريات الأمور، خلال خلافة الرشيد.

وكانت وفاته لعلة ألمت به في سجنه بالرقة عام ١٩٣هـ[٢].

وقد عرف الفضل بشاعريته، وبديهته الأدبية يدلنا علي ذلك ما يحكيه هو فيقول: "دخلت علي الرشيد، وبين يديه طبق ورد، وعنده جاريته "مارية" وكانت تحسن الشعر والأدب، مع الحسن والجمال، فقال: يا فضل، قل في

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٦/٤٤٤: ٤٤٥.

(٢) الوزراء والكتاب الجهشياري ص ٢٦١.

هذا الورد فأنشدته بديها.

كَأنَّه فَمُ محبـــــوبٍ يقبِّلُهُ فَمُ الحَبِيبِ وقَدْ أبدَى بِهِ خَجَلاً[1]

هذا هو الفضل بن يحيى أحد البرامكة المشهورين بمالـــه مـــن دور عظيم في خدمة (الخلافة العباسية) وبما عرف عنه من شاعرية وبديهة أدبية.

٤ - جعفر بن يحيى:

" وأما جعفر فهو ثاني أولاد يحيى وكان من علو القدر، ونفاذ الأمر، وبُعـــد الهمة، وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولـــم يشارك فيها. وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البـــشر، وأمـــا جـــوده وسخاؤه، وبذله وعطاؤه، فكان أشهر من أن يذكر، وكان من ذو الفـــصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة، وكان أبوه قد ضمه إلي أبي يوسف يعقـــوب القاضي حتى علمه وفقهه وكان الرشيد يأنس به"[2].

هذا وقد "ذكر ذو معرفة بأخبار البرامكة أنه لما بلغ جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ويحيى بن خالد والفضل وغيرهم من آل برمك ما بلغـــوا من الملك وتناهو إليه من الرياسة واستقامت لهم الأمور، حتى قيل: إن أيامهم عروس وسرور دائم لا يزول، قال الرشيد لجعفر بن يحيى ويحك يا جعفـــر إنه ليس في الأرض طلعة أنا بها آنس ولا إليها أميل، وأنا بها أشد استمتاعاً وأنساً مني برؤيتك" [3].

وقد وصفه ثمامة بن أشرس فقال: "كان جعفر بن يحيى أنطق الناس قد جمع الهدوء والتمهل، والجزالة والحـــلاوة، ولا يتجلجـــل، ولا يتنحـــنح،

---

(١) ذيل الثمرات لأبن حجة الحموي جـ٢/٢٠١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولي، مطبعة الخانجي، ١٩٧١م.

(٢) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضري ص ١٤٢.

(٣) مروج الذهب للمسعودي جـ ٢/٢٩٦.

ولايترقب لفظ قد استدعاه من بُعد، ولا يتلمس معنى قد عصاه بعُـدَ طلبـه له[1].

ويقول عنه أيضا: "لم أر أنطق من جعفر بن يحيى بن خالد"[2].

وفي الرشيد وجعفر يقول الشاعر:

لِيَهنِ الرَشِيدَ خلافَاتُه ... وأمْرُ الذي قَد وَهَى عَقدَه

أَضَافَ إلىَ بَيعةٍ بَيعةً ... فقَامَ بها جَعْفَرُ وَحَـــدَه

بَنو بَرْمَكٍ أَسَّسُوا مُلكَه ... وشَدّوا لوَارثِه عَهْـــدَه[3]

وكذلك يصف إسحاق الموصلي أدب جعفر بن يحيى وثقافته فيقول: "لم أر قط مثل جعفر بن يحيى، كانت له فتوة وظرف، وأدب وحسن غنـاء، وضرب بالطبل، وكان يأخذ بأجزل حظ من كل فن من الأدب والفتوة[4].

وهكذا فقد حاز جعفر بن يحيى من علو الهمة ونفاذ البصيرة وبعـد النظر وعظم المحل وجلالة المنزلة ما لم يشاركه فيه أحد وكانت له منزلـة خاصة عند الرشيد، حيث كان أثيراً إلي قلبه لا يطيق فراقه ومـن جلسائه وندمائه المقربين، وبهذا بلغ جعفر من علو المرتبة وسمو المكانة عند الرشيد ما لم يبلغه سواه، فقد كان سياسياً أريباً، وأديباً بليغاً، ذلق اللسان، حاضـر البديهة وقد ألمح من مدحه من الشعراء، وأثني عليه من الأدباء إلـي هـذه الصفات كثيراً.

ويعضدد هذه الخلال المجيدة كرم فياض، وأريحية تهتز له ،ولعـل فى عطاياه المتصلة لأصدقائه ، والمتصلين به، ومدائح الشعراء الكثيرين فى

---

(١) زهر الآداب للحصري، جـ١/١٠٩.

(٢) البيان والتبين للجاحظ جـ ١/١١٥.

(٣) مروج الذهب للسمعودي جـ ٢/٣٩٣.

(٤) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني جـ ٥/٢٠٥١.

عصره له، خير شاهد على ذلك.

٥ – موسى بن يحيى

"وأما موسى بن يحيى فقد كان أشجع القوم وأشدهم بأساً؛ لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر، إلا أنه كان فى تلك الدولة عاملاً سرياً وقائداً باسلاً. ولاه الرشيد الشام سنة١٨٦هـ لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التى ذهب فيها أخوه جعفر وضم إليه من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة، فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها، وسكنت الفتنة واستقام أمرها، فانتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام. ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم، وعما كان منهم وأقدمهم بغداد فقيل فى موسى بن يحيى :–

قَدْ هَاجَتِ الشَّامُ هَيجَاَ ... يَشيبُ رَأْسَ وَلِيدهْ

فَصَبَ مُوسَى عَلَيهَا ... بِخَيْلِه وجنُودهْ

فَدَانتْ الشَّامُ لَمَّا ... أَتَىَ بسنَخِ وَحِيده

هو الجوادُ الذى بَذّ ... كَلَّ جَودِ بِجُودهْ

أَعْدَاه جُودُ أَبِيه ... يَحْيَى وجُوْدُ جَدُودهْ

فَجَاءَ مُوسَى بَنْ يَحْيَىَ ... بِطَارِفٍ وَتَلِيدهْ[١]

ولكن حدث أن ساءت العلاقة بينه وبين الرشيد، وذلك عندما "اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب فى اضطراب خراسان عليه، وأعلمه طاعة أهلها لموسى، ومحبتهم إياه، وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم للوثوب به معهم؛ فوقر ذلك فى نفس الرشيد وأوحشه منه. فلما قدح على بن عيسى فيه، أسرع ذلك فى الرشيد

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى، ص ١٤٥.

وعمل فيه القليل منه. ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلما صار إلى الحيرة فى حجه سنة ١٨٧هـ وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة، عند العباس بن يحيى بن موسى، فركبت أم الفضل بن يحيى فى أمره، ولم يكن الرشيد يردها فى شئ، فقال يضمنه أبوه فقد رفعَ إليَّ فيه فضمنه يحيى ورفعه إليه ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه[١].

٦ - محمد بن يحيى :

" وأما محمد بن يحيى فكان سرياً بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لإخوته"[٢] فلم يكن له دور يذكر فى سياسة الدولة العباسية وأحداثها ووقائعها مما جعل الرشيد لا يتعرض له بسوء عندما نكب البرامكة، وقد وصف إبراهيم الموصلى أبناء يحيى فقال: " أما الفضل فيرضيك بفعله وأما جعفر فيرضيك بقوله، وأما موسى فيفعل مالا يجد، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد". [٣]

هؤلاء هم البرامكة، فقد كانوا فرسان البلاغة وملوك البيان كما كانوا مبرَّزين فى حلبة الجود والسخاء، تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام، وتلك هى مقدرتهم السياسية التى قطف ثمارها الرشيد عندما نكبهم نكبته المشهورة، وقد تجلت تلك القدرة فى ميادين الحضارة والثقافة، فنهضت تلك البلاد نهضة عظيمة، جعلت تلك الفترة الزمنية القصيرة عصراً ذهبياً للدولة العباسية، فحق للرشيد أن يستلقى على ظهره يوماً، وينظر إلى

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٥ : ١٤٦.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص١٤٦.

(٣) الوزراء والكتاب للجهشيارى، ص ١٩٨.

السحابة المارة من فوقه ويقول لها : " اذهبى حيث شئت فسيأتينى خراجك".[١]

هذا كله إلى جانب حرصهم البالغ على تشجيع الأدباء والعلماء، حيث قربوهم إليهم وأغدقوا المزيد من العطايا والهبات عليهم. بل أغروهم بالانقطاع إليهم دون غيرهم، كما عملوا على إثارة روح التنافس فيما بينهم، تشجيعاً لهم على الإجادة والإبداع، ولم يقتصر تشجيعهم هذا على الشعراء الذين يمدحونهم أو ينقطعون إليهم دون غيرهم، بل عمموا اهتمامهم ووزعوا عنايتهم وبذلوها دون تمييز، فشملت معظم الشعراء حتى أولئك الذين كانوا يناصبونهم العداء، ويكيلون لهم العديد من ألوان الهجاء، حتى غصت بهم المجالس، وامتلأت بهم جنبات بغداد.

فقد كان يحيى بن خالد يأمر للشاعر إذا مدحه بعشرين ألف درهم، فكم أمر بعشرات الآلاف للأصمعى، والموصلى، وأبى قابوس الحميرى، وغيرهم من الأدباء والشعراء الذين اتصلوا بهم، وتقربوا إليهم، وخصوهم بأشعارهم. فهذا الفضل بن يحيى يعطى شاعراً من الأعراب مائتى ألف درهم بعد أن قال فيه شعراً أعجبه.[٢]

وكان جعفر بن يحيى يتكرم فى كل يوم على ألف شاعر، ويعطى كل واحد منهم ألف درهم.[٣] وكان يعطى من هجاه خمسة آلاف درهم ويعفو عن تأديبه أو الانتقام منه.[٤]

وكذلك نجد أن البرامكة قد اعتنوا عناية كبيرة بحركة الترجمة التى تولت نقل ثقافات الأمم الأخرى إلى الثقافة العربية، وقد واكب ذلك الاهتمام

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى، جـ٢/٢٧٠، طبع دار الكتب المصرية، ١٣٤٠هـ.

(٢) أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس للأتليدى، ص ١٧١. وفيه قصة هذا الأعرابى ومحاورته للفضل.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧١.

(٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى، جـ١/١١٢، طبع مكتبة القدس بمصر عام ١٣٥٠هـ.

بحركة الترجمة. ونقل الثقافات الأجنبية إلى العربية. اهتمام آخر يتمثل في تشجيع الحياة الأدبية والعمل على ازدهارها حيث أولوا ذلك عناية خاصة.

وعندما نقل أبان اللاحقي كتاب كليلة ودمنة للبرامكة وجعله شعراً ليسهل حفظه عليهم ... أعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار، ولم يعطه جعفر شيئاً، وقال: ألا يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك؟[1]

وهذا يدلنا على أن الإبداع والإجادة لم يقتصر على الشعراء فقط؛ بل شمل البرامكة أنفسهم، فهذا هو جعفر يجعل مكافأته لأبان اللاحقي أن يكون راوية له.

(١) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، جـ٢٧/ ٩٣١٠.

ثانياً: شعر المديح فيهم :-

لقد حقق البرامكة مكانة أدبية كبيرة بالإضافة إلى مكانتهم السياسية السامية، مما جعل الكثير من الشعراء يلهثون بالثناء عليهم، ويكثرون من مديحهم والإعلاء من قدرهم.

وقد قابل البرامكة ذلك، بالإغداق عليهم بالعطايا والهبات التي تعادل ما يقدمه الخلفاء العباسيين، وقد تفوقه لولا الاعتبارات الأدبية التي يجب مراعاتها للخلفاء.

فها هو ذا الشاعر "بشار بن برد" يُعجب بخالد البرمكي حين يطلق على المستميحين اسم "الزوار" وكانوا من قبل يسمون "سؤالا" فاستقبح ذلك الاسم، قائلاً: "هذا والله اسم استثقله لطلاب الخير، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم ومَنْ لعله خير ممن يُقصد وأفضل أدبا، ولكنا نسمّيهم الزوار، فقال بشار يمدحه بذلك:

حذا خالدٌ في فعله حَذْوَ بَرْمكٍ ... فمجدٌ له مُستطرَفٌ وأَصيلُ
وكان ذوو الآمال يُدعَوْن قبلَه ... بلَفظٍ على الإعدام فيه دَليلُ
يُسمَّوْن بالسُّؤَّال في كلّ مَوْطنٍ ... وإن كان فيهم نابهٌ وخَليلُ
فسمّاهُمُ الزّوارَ سَتْراً عليهمُ ... فأستارُه في المُجْتَدين سُدولُ

وقال بَّشار هذا الشعر في مجلس خالدٍ في الساعة التي تكلم خالد بهذا الكلام في أمر الزوار، فأعطاه لكل بيت ألف درهم".[1]

ومن شعره فى مدح خالد البرمكى قوله:

لعَمْري لَقَد أَجْدى عليَّ ابنُ برمَكٍ ... وما كلُّ مَنْ كان الغِنَى عنده يُجْدِي
حلَّيْتُ بشِعْري راحَتَيْهِ فَدَرَّتَا ... سَماحاً كما دَرَّ السَّحابُ على الرّعدِ

---

(١) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جـ٣/ ١٠١٩.

إذا جئتَه للحمد أشرقَ وجهُـه ... إليكَ وأعطاكَ الكـرامةَ بالحمـدِ
له نعَمٌ في القوم لا يستثيبُهـا ... جزاءٌ وكيلَ التاجرِ المُـدِّ بالمُـدِّ
مُفيدٌ ومتلافٌ، سَبيلُ تُراثـــه ... إذا ما غدا أو راحَ كالجذرِ والمدِّ
أخالدُ إنّ الحمدَ يبقى لأهلـــه ... جمالاً ولا تبقى الكُنوزُ على الكدِّ
فأطْعِمْ وكُلْ من عارةٍ مُستَرَدّة ... ولا تُبقِها، إن العَوارِيَ للـــرَدِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفـادة خمـسة آلاف درهم، وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان في صدر مجلسه الذي كـان يجلس فيه. وقال ابنه يحيى بن خالد: آخر ما أوصاني به أبي العمل بهـذين البيتين.(١)

وفد بشار إلى خالد بن برمك وهو على فارس فأنشده:

اخالـدُ لم أخْبِـطْ إليـك بذمـة ... سوى أنّنـي عافٍ وأنتَ جَوادُ
أخالدُ بيْن الأجر والحمدِ حاجتي ... فأيّهمـا تأتـي فأنـتَ عمـادُ
فإن تُعطني أُفرِغْ عليك مَدائحي ... وإن تأبَ لم يُضربْ عليَّ سدادُ
ركابي على حَرْفٍ وقلبي مُشَيَّـعٌ ... ومالي بأرض الباخلين بـــلادُ
إذا أنكَـرتني بلـدةٌ أو نكِرْتُهـا ... خرجتُ مع البازي عليَّ سَوادُ

قال: فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس فوضّع واحداً عن يمينه، وواحداً عن شماله وآخر بين يديه وآخر خلفه، وقال: يا أبا معاذ، هل استقل العماد؟. فلمس الأكياس ثم قال: استقل والله أيها الأمير.(٢)

ولبشار شعر كثير قاله في مديح البرامكة، ونال عليه منهم الكثير من العطاء والجزيل من النوال.

وكان الفضل بن يحيى والرشيد أخوين من الرضاع، وفي ذلك يقول

---

(١) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جـ٣/ ١٠٣٨.

(٢) المصدر السابق جـ٣/ ١٠٤٨: ١٠٤٩.

مروان بن أبي حفصة، يمدح الفضل بهذا الشرف، الذي حازه من الرضاع:

كَفَى لَكَ فَضلا أن أَفْضَلَ حُـرَّةٍ عَذتْك بِثدي والخَليفَةُ وَاحدُ

لقد كان الفضل على شاكلة أبيه، في الكرم والفضل، والحكمة والعقـل روي عنه الكثير في ذلك المجال. فكان أكثر البرامكة كرما وسعة بدرجـة فاقـت الحد، وندت عن التصوير، كما كان في أكثر الأعمال، التي أسندت إليه كفئاً. نزيهاً، وعونا ونصيراً لوالده يحيى، فلما ولى أبوه الوزارة، كان الفضل ينوب عنه في جلائل الأعمال، وعظائم الأمور ولذا كان يطلقـون عليـه الـوزير الصغير. حتى عرف بها بين البرامكة.(١)

كما كان الفضل يفضل نصيب الأصغر، على أكثر شعراء العـصر ومما حاز إعجابه من شعره، قصيدة جيدة، قالها في مدح البرامكة وطـارت شهرتها في الآفاق، حتى أصبحت "فاكهة أهل الأدب" ونُقـل الملـوك فـي مجالسهم لجودة ألفاظها وقوة سبكها، وروعة معانيها.، ومما جاء فيها قوله:

عند الملـوك مَضَـرَّةٌ ومنافـعُ وأرى البَرَامكَ لا تَضُرّ وتنفعُ

إنْ العروقَ إذْا آستسرَّ بها الثَرَى أَشرَ النباتُ وطـابَ المَزْرَعُ

وإذْا جَهلتَ مـن امرئٍ أعرَاقَـه وقَديمَه فانظـر إلى ما يُصنعُ

وهي قصيدة رائعة. وكان الفضل يقول للشعراء، عندما يمدحونه أو يلقـون الشعر بين يديه مشيراً إليها: "إذا قلتم: فقولوا مثل هذه الأبيات، وإذا مـدحتم فامدحوا بمثل هذا الشعر".(٢)

"وكان الفضل أكثر جوداً وأندى راحة، فتكاثر الشعراء علـى بابـه، وتكاثرت مدائحهم فيه". وصور ذلك بعض الشعراء فقال:

ما لقينا من جُود فَضل بن يحيى ترك النـــاسَ كلَّهم شعراءَ

---

(١) وفيات الأعيان جـ٣ / ١٩٧ وأنظر أيضا: تاريخ الطبري جـ٦/ ٤٤١، ٤٤٤: ٤٤٥.

(٢) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص١٥٥: ١٥٦. وانظر الأغاني جـ٥/ ٢٠٣٧.

علّم المفحمين أن ينطقوا الأشـ ـعارَ منا والباخلين السّخاء[1]

ويقول إسحاق الموصلي من أبيات فيه عمل فيها لحناً وغناه بها فطرب طربا شديداً:-

لو كانَ بيني وبين الفضلِ مَعْرفةٌ فضلُ بن يحيى لأعْدائي على الزّمنِ

هُوَ الفَتى الماجدُ الميمونُ طَائرُهُ والمُشترى الحَمدَ بالغالي من الثمنِ[2]

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى، في يوم قد جلس فيه للشعراء فجعلوا ينشدونه، ويأمر لهم بالجوائز، حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد ابن وهب كالمستنطق، فقال له: أيها الوزير، إني ما كنت استعددت لهذه الحال. ولا تقدّمت لها عندي مقدمة فأعرفها، ولكن قد حضرني بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة، فقال: هاتهما، فرُب قليل أبلغ من الكثير، فقال سعيد:

مدَح الفَضلُ نفسه بالفَعال فعَلاَ عـن مَديحـنا بالمقَال

أمَرُوني بمَدْحه قلتُ كَلاَّ كَبُر الفَضلُ عن مَديح الرّجال[3].

قال: فطرب الفضل، وقاله له: أحسنت والله وأجدت! ولئن قل القول ونزر لقد اتسع المعنى وكثر، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كل من أنشده مديحاً يومئذ، وقال: لا خير يجيء بعد بيتيك وقام من المجلس، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما.[4]

لقى المبارك مؤدب الفضل بن يحيى أشجع السلمى. فقال له أنشدني ما قلته في جعفر، فأنشدته، فقال: ما يمنعك من الفضل؟ فقلت: ومن لي

---

(١) الوزراء والكتاب، ص ١٩٥. وانظر كذلك العصر العباسى الأول للدكتور شوقى ضيف، ص ٣٢٩.

(٢) كتاب الأغانى للآبى الفرج الأصبهانى، جـ٢٦/٩٢١٤. وانظر كذلك العصر العباسى الأول للدكتور شوقى ضيف، ص ٣٢٩.

(٣) العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص٣٢٨: ٣٢٩.

(٤) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جـ٢٣/ ٨٠٤٢.

بالفضل؟ فقال: أنا لك به، فأدخلني عليه فأنشدته:

وما قدَّم الفضلَ بنَ يحيى مكانُه ... علَى غيره بل قدَّمتْهُ المكارمُ

لَقَد أرْهَب الأعداءَ حتى كأنَّما ... على كلِّ ثَغْرٍ بالمنيّةِ قَائمُ.

فقال لي: كم أعطاك جعفر؟ فقلت: عشرة آلاف درهم، فقال: أعطوه عشرين ألفا.(١)

وجاء في البيان والتبيين: "ولما أنشد ابن أبي حفصة. الفضل بن يحيى ابن خالد:

ضَرَبْتَ فلا شُلَّتْ يَدٌ خالديَّةٌ ... رَتَقْتَ بها الفتقَ الذي بين هاشمِ

قال له الفضل: قل: "فلا شلت يد برمكية" فخالد كثير، وليس برمك إلا واحداً.(٢)

هذا ، ومن أبرع ما قيل لهم قول أبى ثمامة الخطيب :

للفضلِ يَوْمُ الطَّالَقانِ، وقَبْلَه ... يومُ أناخَ به على خَاقَانِ

ما مثلُ يَوْمَيْه اللَّذَيْنِ تَوالَيا ... في غَزْوتينِ حَواهما يَوْمَانِ

عَصَمَتْ حُكومَتُه جماعةَ هاشمٍ ... منْ أنْ يُجرَّدَ بَينَها سَيفَانِ

تِلكَ الحُكومةُ لا التَّي عَنْ لَبْسها ... عَظُمَ الثَّأى وتفَرقَ الحُكْمانِ.(٣)

وقد أعطاه الفضل بعد إنشادها مائة ألف درهم، وخلع عليه وتغنى بها إبراهيم الموصلي.

وقد دخل مسلم بن الوليد يوماً على الفضل بن يحيى، وقد أتاه خبر سره، فجلس للشعراء، فمدحوه وأثابهم، ونظر في حوائج الناس فقضاها، وتفرق الناس عنه، وجلس للشرب، ومسلم بن الوليد غير حاضر لذلك، وإنما بلغه حين انقضى المجلس، فجاءه فأدخل إليه، فاستأذن في الإنشاد، فأذن له، فأنشده قوله فيه:-

---

(١) المصدر السابق جـ٢٠/ ٧٠٢٤: ٧٠٢٥.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣/ ٣٥٥.

(٣) المصدر السابق، جـ٣/ ٣٥٥: ٣٥٦.

والثأى: الفاسد والأمر العظيم يقع بين القوم.

أَنَتْكَ المَطَايَا تَهْتَدِي بِمَطِيَّة ... عليها فتًى كالنَّصْلِ مؤنِسُه النَّصْل

ويقول فيها:

وَرَدْتَ رِوَاقَ الفَضْلِ آمِلُ فَضْلَهُ ... فَحَطَّ الثناءَ الجَزْلَ نائلُه الجَزْلُ
فَتًى تَرْتَعِي الآمالُ مُزْنَةَ جُـودِه ... إذا كان مَرْعاها الأمانيُ والمَطْلُ
تُسَاقِطُ يُمْنَاه النَّدى وشِمالُهُ الـ ... ـرَدَى وعُيونُ القَوْلِ مَنْطِقه الفَصْلُ
أَلَحَّ على الأيَّامِ يَفْرِي خطوبَهـا ... على مَنْهَجٍ أَلْفَى أَبَـاه به قَبْلُ
أَنافَ به العَلْيَاءَ يَحْيَى وخالِـدٌ ... فَلَيس له مِثْلٌ ولا لَهمـا مِثْلُ
فُروعٌ أَصابتْ مَغْرِسًـا مُتمكِّنًا ... وأَصْلًا فطابَتْ حيث وَجَّهها الأَصْل

بكفِّ أبي العبّاس يُسْتَمْطَرُ النَّدى وتُستنزلُ النُّعْمَى ويُسْتَرْعَفُ النَّصل

قال: فطرب الفضل طرباً شديداً، وأمر بأن تُعد الأبيات، فَعُدتْ فكانت ثمانين بيتًا، فأمر له بثمانين ألف درهم، فقال: لولا أنها أكثر ما وصل بها الشعراء لزدتك، ولكنه شأو لايمكنني أن أتجاوزه. يعني أن الرشيد رسمه لمروان بن أبي حفصة وأمره بالجلوس معه والمقام عنده لمنادمته فأقام عنده وشرب معه.(١)

وكان الفضل يدني أبا نواس على عكس أخيه جعفر الذي كان يجفوه فصب عليه أبو نواس شواظاً من هجائه. مما جعل أبا نواس يلهج بالثناء على الفضل، وفيه يقول:

قُولا لها رُونَ إمامِ الهُدَى ... عند احتفالِ المجلسِ الحاشد
نَصيحةُ الفَضْلِ وإشفاقُهُ ... أَخْلَى لَهُ وجهَكَ من حَاسِـد
بصادقِ الطاعةِ دَيَّانهـا ... وواحد الغائب والشَّاهِـد
أَنتَ على ما بِكَ مِنْ قُدْرَةٍ ... ما أَنتَ مِثْلَ الفَضْلِ بالواجِدِ
أَوحَدَه اللّهُ فمـا مِثْلُهُ ... لطالبٍ ذاكَ ولا نَاشِـد
وليس على الله بمستنكرٍ ... أَنْ يَجمَعَ العالَمَ في واحدِ.(٢)

---

(١) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج٢٢/ ٧٢٩٩: ٧٣٠٠.

(٢) الحيوان تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ج٣/ ٦٣: ٦٤ بتحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون. الهيئة العامة لقصور الثقافة.

وأراد أبو نواس بمدحه للفضل، أن يستعطف الرشيد عليه فيقول عن الفضل أنه مخلص لك في حضرتك وفي غيبتك.

وأما مروان بن حفصة فيمدح الفضل بن يحيى بعد رجوعه من خراسان، بعد أن أصلح أمرها وأعاد إليها الهدوء والأمن، ونظم شئونها المختلفة، فماتت الفتنة في مهدها، يقول واصفاً ما قام به الفضل من أعمال عظيمة هناك:

حَمِدْنَا الذي أَدَّى بنُ يحيى فأَصْبحت ... بَمقْدَمه تجري لنا الطّيرُ أسْعُدَا
وما هَجَعَتْ حتى رأتَهُ عُيونُنا ... وما زِلْنَ حتى آب بالدمعِ حُشَّدا
لقد صَبَحَتْنَا خيلُه ورجالُه ... بأرْوَعَ بَذَّ الناسَ بأساً وسؤددَا
نفى عن خُراسان العُدَّ وكما نَفَى ... ضُحى الصبح جِلْبابَ الدُجى فتعرَّدَا
لقد راعَ من أمْسَى بَمْرو مسيرُهُ ... إلينا وقالوا شعبُنا قد تبددَا
على حينَ ألقى قُفْلَ كلِّ ظُلامةٍ ... وأطلق بالعفوِ الأسيرَ المُقَيدَا
وأفشى بلا مَنٍّ مع العدلِ فيهمُ ... أياديَ عُرفٍ باقياتٍ وعُوَّدَا
فأذهب روعاتِ المخاوفِ عنْهمُ ... وأصدر باغي الأمن فيهم وأوردَا
وأجدى على الأيتامِ فيهم بُعْرفه ... فكان من الآباءِ أحْنَى وأعْودَا
إذا الناسُ راموا غايةَ الفضل في النَّدى ... وفي البأس أَلْفَوْها من النَّجمِ أبْعدَا
سما صاعداً بالفضلِ يحيى وخالدُ ... إلى كل أمرٍ كان أسْنى وأمْجدا
يلينُ لَمنْ أعطى الخليفةَ طاعةً ... ويُسْقِي دمَ العاصِي الحُسامَ المهنّدَا
أَذَلَّتْ مع الشركِ النفاقَ سيوفُهُ ... وكانت لأهلِ الدينِ عزّاً مؤبَّدا
وشدّ القُوى من بَيْعة المصطفى الذى ... على فضلِه عهدَ الخليفةِ قُلِّدا[1]

وله أيضا فيه يمتدح جوده، ويصف كرمه وفضله، اللذان يتدفقان

---

(١) تاريخ الطبري جـ٨/٢٥٩.

دون حدود تحدهما، كالسيل المنهمر الذي لا تقف أمامه سدود أو حواجز فوق انطلاقه وتقدمه فيقول:

أَلَمْ تَرَ أن الجـــودَ من لدُنِ آدمٍ تحدَّر حتى صار في راحةِ الفضلِ
إذا ما أبو العبّاس راحتْ سماؤُه فيالَكَ من هَطْلٍ ويالَكَ مـــن وبْلِ
إذا أُمُّ طفلٍ راعَها جوعُ طفلِهـــا دَعتْه بإسْمِ الفضلِ فاستعصَمَ الطِّفْلُ
ليحيا بك الإســـــلامُ إنك عِزُّهُ وإنك من قـــومٍ صَغيرُهُمُ كهلُ[1]

ويلاحظ على الأبيات السابقة أن بها إقواء، حيث اختلفت فيها حركة الروي بين البيتين الأولين وبين البيتين الأخيرين من الكسرة إلى الضمة. كما ورد عجز البيت الثالث في "الوزراء والكتاب ص١٩٠ هكذا "غذته بذكر الفضل..."

ويتخذ الفضل بخراسان جنداً كثيراً، بلغ تعدادهم خمسمائة ألف رجل، وسماهم العباسية، وكان يستعين بهم في إدارة شئون هذه الديار المشرقية، فقال مروان يمدح شجاعته وبأسه ويصف قوته في الحرب:

مَا الفضلُ إلا شِهَابٌ لا أقُـــولَ لَهُ عِنْدَ الحروبِ إذَا ما تَأفُلُ الشُهُبُ
إنْ الجوادَ ابْنَ يحيى الفَضلَ لاورِقٌ يبقى على جُود كفَّيْه ولا ذَهَـبُ
ما مرَّ يومٌ له مُذْ شَـــــدَّ مِئْـــزَرَهُ إلا تَمولَّ أقوامٌ بمـــا يهـــــبُ
كَمْ غَايةٍ في الندَيِّ والبَأسِ أحْرَزَها للطّالبين مَداهـــا دُونها تَعَبُ
يُعْطي اللُّهَي حين لا يُعْطِي الجوادُ ولا ينبُو إذا سُلَّتِ الهندِيةُ القُضُـــبُ
ولا الرضَا والرضَا للّه غايتُـــــهُ إلى سوى الحقِّ يَدْعُوه ولاالغَضَبُ
قَد فَاضَ عُرفُكَ حتى ما يُعادلُـــــهُ غيثٌ مُغيثٌ ولا بحْرٌ لَهُ حَدَبُ.[2]

---

(١) المرجع السابق جـ٨ / ٢٥٨.

(٢) تاريخ الطبري جـ٨/ ٢٥٧.

وجاء في كتاب الأغاني للأصبهاني قوله: "أن النصيب دخل على الفضل ابن يحيى بن خالد مسلِّماً، فوجد عنده جماعة من الشعراء قد امتدحوه، فهم ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز ولم يكن امتدحه، ولا أعد له شيئاً، فلما فرغوا- وكان يُرَوِّي قولا في نفسه- استأذن في الإنشاد، ثم أنشده قصيدته التي أولها قوله:

طَرَقَتْكَ مَيَّةُ والمَزَارُ شَطيبُ وتُثيبك الهِجْرَانَ وهْيَ قَريبُ

إلى أن يقول في مدح الفضل:

والبَرمكيُّ وإنْ تَقَارَبَ سِنُّـــه أو باعَدَتْه السِّنُّ فَهْوَ نَجيبُ
خِرْقَ العطاءِ إذا اسْتَهلَّ عَطاءُه لا مُتْبِـــعُ مَنًّا ولا مَحْسُوبُ
يا آلَ بَرْمَكَ ما رَأينا مِثْلَكُـــمْ مـــا منكـــــمُ إلاَّ أغـرُّ وَهوبُ
وإذا بَدَا الفَضْلُ بنُ يَحيى هِبتُهُ لِجَلالَه إن الجليلَ مَهـــيبُ
قاد الجِيَادَ إلى العـــدَا وكأنَّها رَجْلُ الجرَادِ تَسُوقهنَّ جَنوبُ
قُباً تُبارى في الأعـــنَّة شُزباً تَدَعُ الحَزُونَ كأنهن سُهوبُ
من كلِّ مضطرب العنان كأنَّـــه ذِئْـــبٌ يُبـــادِرُه الفَريسةَ ذيبُ
تَهْوِى بكُل مُغادِرٍ عـــادَاتُه صِدْقُ اللِّقاءِ فما لَه تكْذيـــبُ

إلى أن قال:

إنَّا على ثِقةٍ وظَنٍّ صادقٍ ممّا نُؤَمِّلُهُ فلَيس نَخيبُ [1]

قال : فاستحسنها الفضل، وأمر له بثلاثين ألف درهم. فقبضها ووثب قائماً وهو يقول:

إنِّي سأَمْتَدُح الفضلَ الذي حُنَيتْ مِنَّا عليه قلوبُ البرِّ والضَّلَعُ

---

(١) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جـ٢٦/ ٩١٢١: ٩١٢٣.

جادَ الرَّبيعُ الذي كُنَّا نُؤمِّلُـــهُ فكلُّنا بربيع الفضل مُرْتَبِـــعُ
كانتْ تَطُول بنا في الأرض نَجْعَتُنا فاليومَ عند أبي العبّاس نَنْتَجِعُ
إنْ ضاق مذْهَبنا أو حلّ ساحَتَنا ضَنْكٌ وأزْمٌ فعند الفضل مُتَّسَعُ

إلى أن قال:

فأنْت مضطلعٌ بالمُلك تَحْمِلُـــهُ كما أبوك يثقّل المُلك مُضْطلع.[1]

ومن الشعراء المبرزين آنذاك والذين حققوا مكانة خاصة عند البرامكة الشاعر أبان بن عبد الحميد اللاحقي، الذي صار من شعراء البرامكة المقربين. فقال في مديحهم الكثير ونال منهم جزيل العطاء. ومما جاء في مديحه للفضل قوله:

لقد برَّز الفَضْلُ بنُ يَحْيى ولم يَزَلْ يُسامي من الغايات ما كان أرْفَعا
يَراه أميرُ المُؤمنيـــن لمُلْكِه كَفيلاً لما أعْطى من العَهد مَقْنَعا
قَضَى بالتي شَدَّت لها رونَ مُلْكُهُ وأحْيَت ليَحْيى نَفْسَـــه فتَمتعا
فأمْسَتْ بنو العَباس بعد اختلافها وآل عليٍّ مثل زَنْديَ يد معـــا
لئن كانَ مَن أسْدَى القَريضَ أجاده لقد صَـــاغ إبراهيمُ فيه فأوْقَعا[2]

وقد قال الشاعر هذه الأبيات في مديح الفضل بن يحيى عندما قدم يحيى بن عبد الله بن الحسين بعد أن طلب له الأمان من الرشيد فأمنه وأعطاه عهداً على ذلك.

ومن أجود ما يروى للشاعر "سلم الخاسر" في مديح يحيى بن خالد. ويقال: إنه نال عليه مالاً كثيراً قصيدة طويلة جاء فيها:

بَقاءُ الدين والدنيا جَميعـــاً إذا بَقِيَ الخليفةُ والوزيـــرُ
يُغارُ على حِمَى الإسلام يَحْيَى إذا ما ضَيَّع الحزمَ الغيـــورُ
وليس يَقومُ بالإســـــلام إلا مُغار يُستَجـــارُ ويستَجـــيرُ
كِلاَ يوميْك من نفْع وضُـــرٍّ يحوطهما كـــــرمٌ وخيرُ

---

(١) المصدر السابق، جـ٢٦/ ٩١٢٤.
(٢) المصدر نفسه، جـ٢٧/ ٩٣٠٨.

وما أَلْهَاكَ عَمَّا أَنتَ فِيـــــه نَعيمُ الملكِ والوطنُ الوثيرُ.[1]

ونلاحظ أن في البيت الأول من هذه الأبيات جمع بين الخليفة ويحيى ابن خالد في المديح وجاء ذلك منه ذراً للرماد في العيون.

ثم نجده بعد ذلك ينطلق في مديح يحيى وحده ويسبغ عليه مجموعة كبيرة من صفات المجد والتفوق، فيقول:

إِلَيكَ سَبيلُنا من كلِّ وجْـــه وكلُّ الأمرِ أَنـــتَ بـه بصيرُ

بَلَوْتُ الناسَ من عُجْمٍ وعُرْبٍ فما أَحدٌ يَسيرُ كمـــا تَسيرُ

وفي كفَّيكَ مَدْرَجَةُ المنايـــا ومن جَدواهما الغَيثُ المطيرُ

وأَنتَ العزُّ في حَرْبٍ وسِلْـمٍ يُضافُ إلى مناكبك الظهورُ

عَرفتَ الدهرُ من خيرٍ وشـرٍ فكلُّ الرأى أَنْتَ بـه خَبيرُ[2]

ويعترض أحد الشعراء مسيرة يحيى بن خالد، وهو يعلم أن صلته لمن يتعرض له في الطريق مائتا درهم فقط فينشده طالباً المزيد على ذلك فيقول:

ياسَمِيَّ الحَصورِ يَحْيَى أُتيحتْ لَكَ من فَضلِ ربِّنا جَنَّتَـانِ

كُلُّ مَنْ مَرَّ في الطريقِ عَليكَ فَلَه من نوالكَ مائتَـــــان

مائتا دِرْهَـــمٍ لمثْلِي قَليـــلٌ هِيَ مِنْكُم للقَابسَ العَجْـلان

فلما سمع يحيى منه هذه الأبيات قال: صدقت، وأمر بعض حاشيته بحمله إلى داره، فما عاد إلى دار الخلافة، سأله عن حاله. فذكر أنه تزوج، وأخذ بواحدة من ثلاث.

أما أن يؤدي المهر أربعة آلاف درهم، وإما أن يطلق، وإما أن يقيم جاريا للمرأة يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها إلى بيته، فأمر له بأربعة آلاف درهم للمهر، وبمثلها ثمناً للمنزل، ومثلها لما يحتاج إليه المنزل، وبأربعة آلاف أخرى لبنيه، وأخرى يستظهر بها فأخذ الرجل عشرين ألف درهم وأنصرف.[3]

---

(١) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص١٠١. وانظر تاريخ الطبري جـ٨/ ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) البرامكة في ظلال الخلفاء لمحمد أحمد برانق ص١٠١ دار المعارف بمصر.

وقد مدح بعض الشعراء البرامكة بما اتصفوا به من صفات الرحمة في معاملاتهم للناس، ودنوهم من الرعية، وحدبهم عليهم وفي ذلك يقول إسحاق ابن حسان الخزيمي:

مَن مُبلغٌ يحيى ودُونَ لقائه ... زَبراتُ كلِّ خُنابسٍ هَمْهامِ[1]

يا راعيَ السلْطانِ غيرَ مُفرِّطٍ ... في لينِ مُختَبطٍ وطيبِ شمامِ[2]

يُغذي مَسارحهُ ويُصقِي شربَهُ ... ويَبيتُ بالرَّبَواتِ والأعلامِ[3]

حتى تَبحْبَحَ ضارباً بجرانه ... ورَسَتْ مَراسيهِ بدارِ سلامِ[4]

في كلِّ ثغرٍ حارسٌ من قلبه ... وشُعاعُ طَرفٍ لا يُفتِّرُ سامِ[5]

ومما يستحسن لعنان الجارية ما قالته من شعر تمتدح به يحيى بن خالد. وتذكر فيه امتنانه على أختين لها. وتسأله إلحاقها بهما فتقول:

نَفى النَّمُ من عَينيَّ حَوكُ القَصائدِ ... آمالُ نَفْسٍ همُّهُا غيرُ نافدِ

إذا ما نَفى عَني الكَري طولَ لَيلَةٍ ... تَعوَّذتُ منها باسم يَحيى بن خالدِ

وَزيرُ أَميرِ المؤمنينَ ومَن لَهُ ... فَعالان من حَمدٍ طَريفٍ وتالدِ

من البرمكيينَ الذين وجوهُمْ ... مَصابيحُ يُطفي نُورُها كلَّ واقدِ

عَلى وَجه يَحيى غُرَّةٌ يُهتَدَي بها ... كما يَهتدي سَاري الدُّجَى بالفَراقدِ

تعوَّدَ إحساناً فأصلَح فاسداً ... ومازَال يَحيى مُصلِحاً كُلَّ فاسدِ

---

(١) زبرات: جمع زبرة بالفتح وهي المرأة من يره زبرا: زجره وانتهره. أسد خباس: جريء شديد. والهمام من الهمهمة، وهو تردد الزئير في الصدر.

(٢) المختبط: مصدر من اختبط، سأله بلا وسيلة ولا قرابة ولا معرفة، والشمام مصدر شامت الرجل، إذا قاربته ودنوت منه.

(٣) تغذى: تصير غذية، أي طيبة بعيدة من الوخم. يقال صفا الرجل الشيء: أخذ صفوه.

(٤) تبحبح "تنحنح"، "ينحنح" في الطبري " تنخنج" يقال تنخنخ البعير: برك ثم مكن لثفناته من الأرض، والضمير للسلطان، وهو الحكم وضرب بجرانه: استقر واستقام. وذلك أن البعير إذا برك واستراح مد جرانه على الأرض، أي عنقه.

(٥) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣/ ٣٥٢: ٣٥٣.

وكانت رِقَابٌ من رِجالٍ تَعطَّلَتْ ... فَقلَدَّها يَحيى كِرَامَ القَلائِدِ

على كل حيّ من أَياديه نِعْمَةٌ ... وآثارهُ مَحمُودةٌ فى المشَاهِدِ

حِياضُكَ في المعروفِ للناسِ جَمَّةٌ ... فمن صَادِرٍ عَنْها وآخَرَ وارِدِ

وفعلُك محمودٌ وكَفُّكَ رَحمةٌ ... ووجهُك نُوارٌ ضُوؤُه غَيرُ خَامِدِ

بلغْتَ الذي لا يبلغُ الناسُ مثلَه ... فأنتَ مكان الكفِّ من كلِّ سَاعِدِ

فيا رَبِّ زِدْهُ نعمةً وكرامةً ... على غيظِ أعداءٍ وإرغامِ جَاحِدِ

مننتَ على أُخْتَيَّ منك بنعمةٍ ... صفتْ لَهُمَا منها عذابُ المَوَارِدِ

فمنْ لي بما أنعمتَ منك عَليهما ... وقَاكَ إله الناسِ كَيدَ المكَائِدِ.(١)

فتلك قصيدة رائعة، تدل على شاعرية "عنان الجارية" فقد امتدحت فيها يحيى بن خالد بكل صفات المجد والجود لأن جود البرامكة وكرمهم قد غطى على جود من سواهم، فيحيى بن خالد مثال يهتدي به غيره في الإصلاح والتقى والجود، وقد بلغ في ذلك ما لم يبلغه غيره من الناس، فآثاره في الناس تشهد بأياديه البيضاء عليهم. وهي تشيد بفضله وامتنانه على أختيها وتسأله أن يلحقها بهما. ويذكر صاحب الأغاني أن يحيى ذكر قصتها للرشيد فأمر بشرائها بثلاثين ألف درهم.

وقد "كان يحيى عاقلا حصيفا يحسن السياسة وتدبير الحكم والنهوض بشئون الثقافة(فهو) يُعنى بشئون الطبِّ والترجمة... وشجّع على الترجمة لكنوز الثقافات الهندية واليونانية والفارسية، وبعث نهضة فكرية واسعة، وفتح أبوابه للشعراء والمغنيين وأسبغ عليهم هو وابناه الفضل وجعفر العطايا الجزيلة حتى لتروى في ذلك رواياتٌ تشبه الأقاصيص، وهي تدل على أنهم كانوا بحوراً فياضة وغيوثاً منهلَّة، جودٌ سيال توارثوه عن أبيهم خالد... وهو

---

(١) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص٤٢١: ٤٢٢.

جود جعل صلاتهم لا تنقطع عن الشعراء فإذا كثير منهم ينقطعون لهم. وإذا هم يشركون الرشيد في جميع شعرائه. وقلما وجد شاعر لعصرهم في بغداد إلا وذبّج فيهم بعض مدائحه"[١].

ومن أشهر شعراء البرامكة المشهورين أشجع السلمي، الذي انقطع لمدح البرامكة بعامة، ولجعفر بن يحيى بخاصة، فأصفاه كثيراً من المدائح التي نالت إعجاب جعفر، وحازت رضاه، وأثابه عليها الكثير من المال والمتاع. فقد جاء في كتاب الأغاني "اشترى جعفر بن يحيى المرغاب[٢] من آل الرشيد بعشرين ألف ألف درهم ورده على أصحابه فقال أشجع السلمي يمدحه بذلك ويقول:

رَدَّ السَّخَاخُ نَدَى يَدَيْه وأَهْلُها ... منها بمَنزلة السِّماك الأَعْزَل.[٣]

قد أَيْقَنُوا بذَهابها وهلاكهم ... والدهْرُ يُوعدهمْ بيومٍ أَعْصَل[٤]

فَافتكَّها لهُمْ وهُمْ من دَهْرهمْ ... بين الجرَانِ وبين حَدِّ الكَلْكل[٥]

ما كان يُرْجَى غيرُه لفكَاكها ... يُرْجَى الكريمُ لكُلِّ خَطْبٍ مُعْضِل.[٦]

و يصف كرمه وحسن فعاله، ورجاحة عقله في سياسة أمور الدولة وحسن تصريفها. فيقول:

ذَهبتْ مَكارمُ جَعْفـــــــرٍ وفَعالُهُ ... في النَّاس مِثْلَ مذَاهِب الشَّمْسِ

---

(١) العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف، ص٣٢٧.

(٢) المرغاب بالكسر: نهر بالبصرة، كانت من حوله أرض سميت باسمه.

(٣) السخاخ: بالفتح الأرض اللينة الحرة – السماك: أحد نجمين يسمى أحدهما السماك الرامح، لأنه ثمة سلاح معه، ويسمى الآخر السماك الأعزل. لأنه لا سلاح معه والمعنى هنا على التورية.

(٤) اعصل: معوج عات.

(٥) الجران: مقدم عنق البعير، من مذبحه إلى منحره والكلكل: الصدر. ويشبه من ثقل عليه الدهر بالواقع تحت جران البعير وكلكله.

(٦) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جـ٢٠/ ٧٠٢١.

مَلِكٌ تَسُوسُ له المَعالِيَ نَفْسَـــه والعَقْلُ خَيْرُ سياسةِ النَّفْـــس
فإذا تَرَاءَتْه المُلوكُ تراجَعُـــوا جَهْرَ الكَلامِ بمَنْطِقٍ هَمْـــس
سادَ البرامكَ جَعْفَرٌ وهمُ الأُلَـــى بَعد الخَلائفِ سادةُ الإنْـــس
ما ضَرَّ مَن قَصَد ابْنَ يَحيىَ راغبا بالسَّعْد حَلَّ به أم النَّحْـــس[1]

ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى يمدحه بقصيدة فوقف ينشد:

أبرَّقَما يرجُو جَوادٌ لحاقَـــهُ أبو الفَضْلِ سَبَّاقُ اللهاميم جَعْفرُ
وَزِير إذا نَابَ الخَلِيفَةَ حَادِثٌ أشَـــار بما عَنْه الخَلِيفةُ يَصدُرُ

لكن جعفر لم يهش لهذه الأبيات، ولم تثر إعجابه، كما هي عادته مع ما يستجيده من الشعر، بل قال له غير مكترث بما قال: ويحك، أنشدني مرثيتك في معـــن:

وكان الناسُ كُلُّهُمُ لمعْنٍ - إلى أنْ زَارَ حُفْرته - عِيالا.

" فأنشده إياها، حتى فرغ من القصيدة، وجعفر يرسل دموعه، فلما سكن قال: هل أثابك أحد من ولده وأهله على هذه شيئا ؟ قال: لا، قال جعفر: فلو كان معـــن حيا ثم سمعها منك، كم كان يثيبك عليهـــا، قـــال: أربعمائـــة دينار، قال جعفر: لكني أظن أنه كان لا يرضى لك بذلك، وقد أمرنا لك عن معن بضعف ما قلته، وزدنا نحن مثل ذلك، فاقبض من الخازن ألفا وستمائة دينار. قبل أن تنصرف إلى رحلك".

فطار مروان فرحاً بذلك، وزاد في مرثيته لمعن هذه الأبيـــات التـــي مدح بها جعفرا:

نَفَحْتَ مَكارِما عن قَبرِ مَعْن لنا مِمَّا تَجُـــودُ به سِجَالا

---

(١) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، جـ٢٠/٧٠٢٢.

فعجّلتَ العطيةَ يا بن يحيى بتأدية ولَمْ تُـــرد المطالا
فكافي عن صدى مَعْنٍ جوادٌ بأجود راحـــة بذلتْ نوالا
بنى لك خالدٌ وأبوك يحيى بناءً في المكـــارم لنْ يُنالا
كأن البرْمكيَّ بكلِّ مـــــال تجُود به يداه يُفيدُ مَالا.(١)

فلم ينصت جعفر لمدح مروان فيه، ثم أسرع إلى المبالغة في عطائه. وتلك هي عادة البرامكة مع كثير من الشعراء. لأن جعفرا أدرك بذوقه الرقيق وحسه النقدي الدقيق؛ تملق ذلك الشاعر ومدى ما وقع فيه من تكلف وافتعال جريا وراء المال، والشعر أحاسيس ومشاعر صادقة قبل كل شيء. ولذا يعرض جعفر عن الإنصات إلى هذا الهراء، ويقترح عليه أن ينشده مرثيته في معن وهي من أجود ما قيل في شعر الرثاء.

أما منصور النمري فقد مدح جعفراً عندما عاد من الشام، فقال:

لَقَد أُوقدتْ بالشّام نيرانُ فتنـــــة فَهذَا أوانُ الشّامِ تَخمَدُ نارُهـــا
إذا جَاشَ مَوْجُ البحرِ من آل برمك عَليها خبَتْ شُهْبانها وشرارُها
رَمَاها أميرُ المؤمنين بجَعفـــــر وفيه تَلاقي صَدْعُها وانجبارُها
رَمَاها بميمون النَّقيبَةِ ماجـــــد تُراضى به قَحطَانُها ونزارُها(٢)

ومن جيد ما قاله الشاعر "مسلم بن الوليد" في مديح جعفر بن يحيى يصف كرمه وجوده ويصور عطاياه وهباته التي لا تنقطع ولا يحرم منها أحد. فيقول:

تَداعَت خُطوبُ الدهرِ عَن جارِ جَعْفر وأمسك أنفاسَ الرَغائبِ سائلُهْ
هَو البحرُ يغشى سُرَّةَ الأرضِ سَيْبُهُ وتُدرِكُ أطرافَ البلادِ سَواحلُهْ
فلو لَم يكنْ في كَفِّه غيرُ رُوحِـــه لجَادَ بها فليتَقِ اللهَ سائلُـــهْ

---

(١) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص٤٥ وما بعدها.

(٢) أعلام الناس بما وقع للبرامكة للاتليدي ص١١٥ وراجع أيضا تاريخ الطبري جـ٨/ ٢٦٢.

تصدَّعت الآمالُ عنك بألسُـــــــن مُحَمَّلَة شُكرَ الذي أنتَ فاعِلُهْ
وما ضرَعَتْ للدهرِ منك سَجيَّـــــةٌ وإن طَرَقَتْ بالمُفْظِعات بلابِله
ولله سيفٌ ما على الأرضِ مِثلُـــه مَضاربُه يَحْيَى وأنت مُقَاتِلُهْ[1]

وعندما عاد جعفر من الشام بعد أن قضى على الفتنة التي اشتعلت نيرانها هناك، قال مسلم بن الوليد هذه الأبيات يصور فيها بطولته وشجاعته، ويصف رجاحة عقله، وصواب رأيه في معالجة هذه الفتنة حتى هدأت وعاد الناس إلى الهدوء والمسالمة من جديد:-

به تعارفتِ الأحياءُ وائْتلفـــــتْ إذ ألَّفتْهمْ إلى معروفة السُّبُـــل
كأنه قمرٌ أو ضيغـــــــمٌ هَصِرٌ أو حَيَّةٌ ذَكرٌ أو عارضٌ هَطِـــلُ
لا يضحكُ الدهرَ إلا حين تسألُـــهُ وليسَ يَعْبَسُ إلا حين لا يُسَـــلُ
أعطى المقادةَ أهلَ الشام حين غُشُوا من جعفرٍ بهَناتٍ ما لَها حِـــولُ
سدَّ الخليفةُ أطرافَ الثغورِ بـــــه وقد تَهتَّك واسْترخى لها الطِّـــوَلُ
يأتي الأمورَ بأشكالٍ فيُبْرِمُهـــــا مُسْتَحصِدُ الرأي ما فـــي رأيـــه خَطَلُ
يكاد من عزم رأي في بصيرتـــــه أن يَخْتِلَ الدهرَ عما ليسَ يَخْتَتِـــلُ
أثبتَ للدين أركاناً وأعمـــــــدةً قد كان خِيفَ عليها الدَّحْضُ والزَّلَلُ
لاقى بِكَ المجْدُ قوماً يَحْتلونَ بـــه فقلّدوكَ حُليَّ للمجدِ إذ عُطِلُـــوا
لقيتَهمْ بالمنايا في مُلَمْلَمَـــــــةٍ تنبو الصوارمُ عنها والقنا الذُبُلُ
داوى فلسطينَ من أدوائها بطـــلٍ في صورة الموتِ إلا أنه رَجُـــلُ
فسيفُ جعفرَ أعطاهمْ أمانَهُـــــمُ ورأيُ يحيـــى أراهـــمْ غِـــبَّ مـــا

---

(١) شرح ديوان صريع الغوانى ، مسلم بن الوليد. تحقيق الدكتور سامي الدهان ص١٤٦ طبع دار المعارف بمصر والحاشية رقم ٣ ثَمَّة.

جهلـــوا[1]

لقد أفاض الشاعر "مسلم بن الوليد" في تلك القصيدة أصباغ مدائحـــه على ممدوحه "جعفر بن يحيى" حيث صور لنا بطولته وشجاعته في المعارك وكيفية قضائه على الفتنة. كما أنه يصف لنا صواب رأيه ورجاحـــة عقلـــه وقدرته الفائقة في التعامل مع الصعاب والشدائد ومعضلات الأمور حتى أنه تمكن من عودة الهدوء إلى ربوع الشام بعد أن عمتها الاضطرابات والفتن.

"وما زال الشعراء يتناشدون مدائح الفضل وأخيه وأبيه منـــذ أســـلم الرشيد يحيى مقاليد الخلافة في ١٧٠ حتى أول صفر ســـنة ١٨٧ إذ نكـــبهم الرشيد نكبته المشهورة آمراً بقتل جعفر وصلب أجزاء جسده وحـــبس أبيـــه وأخيه. وظلا في الحبس إلى أن ماتا."[2]

---

(١) شرح ديوان صريع الغوانى ، لمسلم بن الوليد ، ص٢٥٠.

(٢) العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص٣٢٩.

ثالثاً: رثاء الشعراء لهم:-

لا شك أن الرثاء من أصدق فنون الشعر العربي فهو نتاج العاطفة القوية، والانفعال الشديد، حيث إنه يُعد من أصدق العواطف الإنسانية تعبيراً عن مكنونات الأفئدة. وقد حفل ديوان شعرنا العربي بالرثاء، الذي انطلق فيه خيال الشعراء، وبرزت فيه الحقائق التاريخية، ممزوجة بالعاطفة الجياشة.

فالرثاء هو الحزن والبكاء والتفجع على من مات أو قتل من الأحباب والأصدقاء. وكما يقول صاحب العمدة "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بيِّن الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام."(١)

ولما كان البرامكة قد لعبوا دوراً كبيراً في الحياة السياسية واستطاعوا بتلطفهم وشجاعتهم أن يجذبوا الناس إليهم وبخاصة الشعراء منهم، إذ أثروا فيهم وغرسوا حبهم في سويداء قلوبهم. فلما نكبوا وزالت دولتهم ظل الكثير منهم على العهد والوفاء لهم فارتفع صوتهم بالبكاء والأنين على ضياع مجدهم غير مبالين بما يلحقهم من أذى، ويصيبهم من عذاب واضطهاد من وراء ذلك.

ولقد استهان الكثير من الشعراء بكل ما لاقوه من عنت وعذاب من جراء ولائهم ووفائهم للبرامكة حيث أكثروا من رثائهم وبالغوا في بكائهم وتمجيد مناقبهم. "وكان طبيعياً أن يبكيهم الشعراء وأن يذرفوا عليهم الدموع مدراراً، لما أغدقوا عليهم من النعم والصلات السنيّة."(٢)

وقد كان الرقاشي الفضل بن عبد الصمد من الشعراء الذين ظلوا على وفائهم، حبهم للبرامكة دون تحول عنهم أو جفاء لهم، فبكاهم بكاءً شديداً، ورثاهم بأبلغ المراثي وأقواها، وذرف عليهم الدموع غزيرة، ومن أبلغ

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ٢/ ١٤٧.

(٢) تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي الأول" ص٣٢٩.

ما رثاهم به قوله في جعفر بن يحيى.

كَمْ هاتفٍ بك من باكٍ وباكيـــــة ... يا طِيبَ للضَّيف إذ تُدْعَى وللجارِ

إن يُعْدَمِ القَطْرُ كنتَ المُزنَ بارِقُهُ ... لَمْعُ الدَّنانيرِ لا ما خَيَّـلَ الساري

وقوله:

لَعَمْرُك ما بالموت عارٌ على الفَتَى ... إذا لم تُصِبْهُ في الحياة المَعايرُ

وما أَحَدٌ حيٌّ وإن كان سالمـــــاً ... بأَسْلَمَ ممّن غَيَّبَتْهُ المَقابـــــرُ

ومَن كان ممّا يُحْدِثُ الدهرُ جَازِعاً ... فلابُدّ يوماً أن يُرَى وهْوَ صابر

وليس لِذي عَيشٍ من الموت مَقْصَرٌ ... وليس على الأيّامِ والدَّهرِ غابِرُ

وكُلُّ شَبابٍ أو جديدٍ إلى البِلَـــى ... وكُلُّ امرئٍ يوماً إلى الله صائرُ

فلا يُبعِدَنْكَ اللهُ عَنّيَ جَعْفَـــــــراً ... بروحي ولو دارت عليّ الدَّوائر

فآلَيْتُ لا أَنْفَكُّ أبْكِيكَ ما دَعَـــــتْ ... على فَنَنٍ ورْقاءُ أو طارَ طائرُ.[1]

وهكذا نجد أن الشاعر في هذه الأبيات قد أخذ عهداً على نفسه أن يظـل على ولائه ووفائه لجعفر فلا ينفك يبكيه طوال دهره أبدا. ولا غرابة في ذلك فقد "كان الرقاشي منقطعا إلى آل برمك مستغنياً بهم عن سواهم، وكانوا يَصُولون به على الشعراء، ويَروّون أولادهم أشعاره، ويدونون القليل والكثير منها تعصبا له. وحفظاً لخدمته وتنويهاً باسمه، وتحريكاً لنشاطه، فحفظ ذلك لهم، فلما نكبوا صار إليهم في حبسهم فأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا، ثم رثاهم، ونشر محاسنهم وجودهم ومآثرهم فأفرط حتى نشر منها ما كان مطويـاً وأذاع منها ما كان مستورا، وجرى على شاكلته بعدهم"[2]

لقد ظل الرقاشي يعطي حبه وولاءه للبرامكة، حتى خيف عليه مـن الرشيد الذي كان يتتبع شعراء البرامكة ويحاول إغراءهم أو تهديدهم حتى لا

---

(١) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، جـ١٧/٦٠٥٥.

(٢) المصدر السابق جـ١٧/ ٦٠٥٢.

يستمروا في ولائهم وحبهم للبرامكة. فقد جاء في الأغاني "أنه لما دارت الدوائر على آل برمك، وأُمر بقتل جعفر بن يحيى وصُلب، اجتاز به الرقاشي الشاعر، وهو على الجذع فوقف يبكي أحر البكاء. ثم أنشأ يقول:

أما واللهِ لولا خوفُ واشٍ ... وعينٌ للخليفة لا تنامُ
لَطُفْنا حول جذعِكَ واسْتلمنا ... كما للناس بالحجر استلامُ
فما أبصرْتُ قبلك يا بنَ يحيى ... حُساماً قدَّه السيفُ الحُسامُ
على اللّذات والدنيا جميعاً ... ودولةِ آلِ برْمَكٍ السلامُ

فكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحضره، فقال له: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، كان إليَّ محسنا، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حركني إحسانه، فما ملكت نفسي حتى قلت الذي قلت، قال: وكم كان يجري عليك؟ قال: ألف دينار في كل سنة، قال: فإنا قد أضعفناها لك."[1]

ولا شك أن الرشيد يريد أن يقطع لسانه بهذا العطاء، فلا يعود مرة أخرى إلى رثائهم وذكر محاسنهم. ولكن الشاعر لم ينته، ولم يتحول عن ولائه وحبه للبرامكة، بل استمر في رثائه لهم وراح يذرف عليهم دموعا غزاراً. وزفرات حارة كلما تذكرهم وحنّت نفسه إليهم حتى خيف عليه من الرشيد فنجده يقول في قصيدة طويلة.

إن يَغْدُرِ الزمنُ الخئونُ بنا فَقَدْ ... غَدر الزمانُ بجعفرٍ ومحمدِ
حَتى إذا وضَحَ النهارُ تكَشفتْ ... عن قَتلِ أكرمِ هَالكٍ لم يُلْحَدْ
والبيضُ لولا أنّها مأمورةٌ ... ما فُلَّ حَدُّ مُهنَّدٍ بمُهنَّدِ

---

(١) المصدر نفسه جـ١٧/٦٠٥٦. وراجع أيضا معجم الشعراء للمرزباني ص١٨١.

يا آل برمكَ كَمْ لكم من نائـــلٍ ونَدًى كعدِّ الرّملِ غيرِ مُصرَّدِ
إن الخليفةَ-لا يُشكُّ-أخوكُـــمْ لكنه في برمكٍ لم يُولـــــدِ
نازَعتموه رضاعَ أكرمِ حُـــرّةٍ مخلوقةٍ من جوهرٍ وزبرجـــدِ
ملكٌ له كانـــــت يدٌ فيّاضـــــةٌ أبداً تجودُ بطارفٍ وبُمتلـــــدِ
كانت يداً للجودِ حتى غلّهـــــا قَدَرٌ فأضحى الجودُ مغلولَ اليدِ.[1]

بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد -- أي استمرار الرقاشي في إظهار حبه وولائه للبراكمة بذكرهم والتحسر عليهم. لكنه وصل إلى الحد الذي راح فيه هذا الشاعر يهدد الخليفة هارون الرشيد، ويتوعده بالثأر والانتقام لقتلـــه جعفرا، ولم يرهبه سلطانه فقال في جرأة وشجاعة نادرتين يبكي جعفرا:

سأبكيك بالبيضِ الرِّقاقِ وبالقنا فإنّ بها ما يُدْرِكُ الطالبُ الوترا
ولَسنا كمن يَبْكي أخاه بعَبرةٍ يُعَصِّرُها من ماء مُقلته عَصرا
ونَحنُ أُناسٌ ما تَفيضُ دُموعُنا على هالكٍ منّا وإن قَصَمَ الظَهرا[2]

نعم، لقد كان الفضل بن عبد الصمد الرّقاشي. وفيا للبرامكة جميعـــاً، محباً لهم فأخذ يتحسر عليهم ويتفجع في مواقف كثيرة فعندما "تُوفيّ العبـــاس ابن محمد بن خالد بن برمك بالخلد[3]. والرشيد بالرصافة[4] وفي يوم جمعة، فأخرجت جنازته مع العصر، وحضر الرشيد والأمين، وأخرجت المضارب إلى مقابر البرامكة بباب البردان[5] وفُرش للرشيد في مسجد هناك. وجـــاء

---

(١) تاريخ الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم جـ٨/ ٣٠٠.
(٢) معجم الشعراء للمرزباني ص١٨٠. تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
(٣) الخلد: قصر ببغداد بناه المنصور.
(٤) الرصافة: رصافة بغداد وهي بالجانب الشرقي.
(٥) البردان: من قرى بغداد.

الرشيد في الحلَق بالأعلام[1] والحراب، فصلى عليه، ووقف على قبره حتى دفن. فلما خرج يحيى ومحمد أخواه من القبر، قبلا يد الرشيد وسألاه الانصراف، فقال: لا، حتى يسوى عليه التراب، ولم يزل قائماً حتى فرغ من أمره، وعزَّاهما وأمرهما بالرّكوب. فقال الرقاشي يرثي العباس بن محمد بن خالد بن برمك:

أَتَحسبني باكرتُ بعدكَ لَذَّةً ... أبا الفَضْل أورَفَّعتُ عن عاتقٍ سترْا
أوِ انتفعتْ عَيناىَ بعدُ بنَظرةٍ ... أوَ ادْنيتُ من كَأس بمشْمُولةٍ ثَغْرا
جَفاني إذن يوماً إلى الليل مُؤْنسي ... وأَصْحتْ يَميني من ذَخائرها صِفْرا
ولكنَّني استشعرتُ ثَوْبَ اسْتكانةٍ ... وبتْ كأنَّ الموتَ يحْفِرُ ليّ قبرا.[2]

لقد أجاد الشعراء، وأحسنوا في رثاء البرامكة وذكر أيامهم. وهاهو ذا الشاعر "علي بن أبي معاذ" يرثيهم بقصيدة بليغة جيدة بلغت أبياتها ثمانية عشر بيتاً، حاول من خلالها أن يضرب المثل والعظة ويستخلص العبرة، مما حل بالبرامكة ونزل بهم، محذِّراً الناس من غدرات الزمن ونوائبه التي لا يأمن عواقبها أحد، ضارباً المثل بقسوة الزمان على البرامكة بعد أن مدّ لهم كل أسباب السيادة والقوة والسلطان، فيقول:

يا أيَّها المُغْتَرُّ بالدهر ... والدَّهرُ ذو صَرْفٍ وذو غَدْرِ
لا تأمَنِ الدهْرَ وصَوْلاتِه ... وكنْ مِنَ الدّهرِ على حَذْرِ
فإنّ فيه عِبرةً فاعتبِرْ ... ياذا الْحِجا والعقلِ والفِكْرِ
وخُذْ من الدنيا صَفا عَيْشِها ... واجْرِ مع الدَّهرِ كما يَجْري
كان وزيرَ القائمِ المُرْتضى ... وذا الحِجا والفضلِ والذِّكر
وكانتِ الدنيا بأقطارِها ... إليه في البَرِّ وفي البحرِ

---

(١) بالأعلام: والاعلام.

(٢) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جـ١٧/ ٦٠٥٤: ٦٠٥٥.

يُشيِّدُ الملكَ بآرائـــــه وكان فيه نافـــــذَ الأمـــر
فبينما جعفرُ في ملكـــه عَشيَّةَ الجُمعة بالعَمْـــــر
يطيرُ في الدنيا بأجناحه يأملُ طُولَ الخُلْد والعُمْـــر
إذ عثر الدهرُ به عَثْـرَةً يا ويْلنا من عَثْرة الدهـــر
وأصبحوا للناس أحدوثةً سبحانَ ذي السلطان والأمر.(١)

ومن الشعراء الذين رثوا البرامكة أيضا وبكوهم بكاءً مراً، وحزنـوا لمصيبتهم حزناً عصف بقلوبهم وحطم نفوسهم الشاعر "دعبل الخزاعي" الذي حزن على البرامكة وتألم لمصابهم وعلى رأسهم جعفر بن يحيى فقال فيه:

لَما رأيتُ السيفَ جَدَّك جَعفرا ونَادى مُنادٍ للخَليفـــة في يَحْيى
بَكيتُ على الدُنيا وأيْقَنتُ أنما قُصَارى الفَتى يَوماً مُفارَقَةُ الدنيا
وما هيَ إلا دَولةٌ بعد دَولـــة تَحَوَّلُ ذَا بَغْي وتُعقـــبُ ذَا بَلْوى
إذا أنْزلتْ هذا مَنازلَ رفعـــة من الملك حَطَّـــتْ ذَا إلـــى غايـــة سُفلى.(٢)

ويقول دعبل الخزاعي في رثائهم أيضا:

ألم تَر صَرْفَ الدهر في آل بَرمك وفي ابن نَهيك والقُرون التي تَخلُو
لَقَد غَرَسَ القومُ النَخيلَ تَمكُّـــناً فما حَصَدُوا إلا كما حُصِدَ البَقلُ.(٣)

ولا نجد في شعر دعبل الخزاعي ما يدل على صلته القوية بالبرامكة ولم يذكر أحد أنه اتصل بهم أو نال عطاياهم. ولكن يبدو ليّ أن هذا الشاعر كان يتعاطف مع البرامكة لمواقفهم من آل البيت وتعاطفهم معهم؛ المتمثل في

---

(١) مروج الذهب للمسعودي جـ٢/ ٣٠٠: ٣٠١ وانظر أيضا البرامكة في ظلال الخلفاء لمحمد أحمد بـراق ص٣٠٧.

(٢) أمالي المرتضى. تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل جـ١/ ١٠١. طبع بيروت.

(٣) مروج الذهب للمسعودي جـ٢/ ٣٠٢.

العمل على حمايتهم من بطش العباسيين وتنكيلهم.

وكذلك كان الشاعر "سليمان الأعمى" وهو أخو الشاعر المشهور "مسلم ابن الوليد" من شعراء البرامكة المخلصين، الذين تفانوا في ولائهم وأخلصوا في وفائهم لهم، حتى بعد أن نكبوا وزال سلطانهم ونفوذهم، ولم يرهبه وعيد الرشيد أو تخيفه تهديداته، فرثاهم بشعر يمتلأ حزناً وألماً ويفيض أسى وحسرة في قصيدة طويلة نذكر منها قوله:

هدا الخالُون من شَجْوي ونامُوا ... وعْيني لا يلائمُها المَنامُ

وما سَهَري بأني مُستَهامٌ ... إذا سَهِر المُحبُّ المُستهامُ

ولكن الحوادثَ أرَّقتني ... فبى أَرَقٌ إذا هجع النِّيام

أُصِبْتُ بسادةٍ كانوا عُيوناً ... بهمْ نُسقي إذا انقطع الغمام

فقلت وفي الفؤاد ضِرامُ نار ... وللعَبرات من عَيني انسجام

على المعروف والدنيا جميعاً ... ودولةِ آل برمك السلامُ

جزعتُ عليك يا فضلَ بنَ يحيى ... ومَن يجزعُ عليك فلا يُلامُ

إلى أن يقول:

أمينَ اللهِ في الفضل بنِ يحيى ... رَضيعك والرَّضيعُ له ذِمامُ

أبا العباسِ إنّ لكلِّ همٍّ ... وإن طال انقراضُ وانصرام[1]

أألهو بعَدكمْ وأَقَرُّ عَيناً؟ ... عليَّ اللهوُ بعدكمُ حَرامُ

وكيف يطيبُ ليّ عيشٌ وفضلٌ ... أسيرُ دونه البلدُ الشآمُ

وجعفرُ ثاوياً بالجِسر أُبلَتْ ... محاسَنه السمائمُ القَتامُ.[2]

أمرُّ به فيغلبني بكائي ... ولكّن البكاءَ له اكتتام

أقولُ وقمتُ منتصباً لديه ... إلى أن كاد يفضحُني القيام.[3]

---

(١) كذا فى الأصل " انقراض وانصرام" . أما ما تتطلبه القاعدة النحوية فهو: " وإن طال انقراضاً وانصراماً. بالنصب على أنه اسم إن " انقراضاً"، وأما "انصراماً" فمعطوف عليه.

(٢) السمائم: جمع سموم وهي الريح الحارة أو الريح الشديد النافذ في المسام. والقتام: الغبار الأسود.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ٥/ ٣٢٩.

وقد وجدنا أن هذه القصيدة قد نسبت لأكثر من شاعر. وذلك لشيوعها على ألسنة الكثير من الناس، فهي سهلة الصياغة، وسلسة الألفاظ، قوية المعاني، تخبر بصدق قائلها وحزنه الشديد لمصاب آل برمك.

وقد نسبت بعض أبياتها للرقاشي في كتاب الأغاني جـ١٧/ ٦٠٥٦ وشذرات الذهب جـ١/ ٣١٥، وفي تاريخ بغداد جـ٧/ ١٥٧ نسبت لأبي قابوس الحميري.

وكذا رثاهم الشاعر "سلم الخاسر" فقال فيهم:

خَوتْ أنجمُ الجدوى وشُلَّت يدُ الندى وغاضَتْ بحارُ الجودِ بعد البرامك

هوتْ أنجمٌ كانت لأبناء برمـــك بها يَعرفُ الهادي قويمَ المسالك.(١)

أما الشاعر "منصور النمري" فإنه يأسى ويتحسر على ما أصاب البرامكة ويصور ما حل بالناس من بعدهم، فيقول:

انْدُبْ بني برْمَك لدُنيا تبكي عليهمْ بكلِّ وادِ

كانت بهم بُرهةً عروساً فأضحت اليوم في حدادِ.(٢)

وممن رثاهم فاستُحسن قوله "أشجع السلمي" الذى يقول من قصيدة:

ألان أرَحْنا واستراحت رِكابُنا وأمسك مَن يُجْدي ومن كان يَجْتدي

فقل للمطايا: قد أمنت من السُّرى وطيَّ الفيافي فُدَ فداً بعد فُدْ فُدِ

وقل للعطايا بعد فضلٍ: تعطَّلي وقل للرزايا: كلُّ يومٍ تجدَّدي

---

(١) مروج الذهب للمسعودي جـ٢/ ٣٠١.

(٢) المصدر السابق جـ٢/ ٣٠٢. وانظر أيضا البرامكة في ظلال الخلفاء لمحمد أحمد براق ص٣٠٧. وجاء في البيت الأول "أيدي" بدل من "أندب" وفي البيت الثاني "الأرض" بدل من "اليوم".

ودونَكِ سيفاً برمكِيّاً مُهنَّـــــداً أصيبَ بسيفٍ هاشميٍّ مُهَنّـــدِ.[1]

وقال أشجع السلمي أيضا:

وليَّ عن الدنيا بنو برمكٍفلو توالـــى الناسُ ما زادا

كأنما أيامُهمْ كلُّهـــــا كانت لأهل الأرضِ أعْيادا[2]

وقال أيضا:

قد سار دهرٌ ببني بَرْمَـــكٍ ولم يدعْ فيهمْ لنا بُقْـــيَا

كانوا أوْلى الخيرِ وهمْ أهلهُ فارتفعَ الخيرُ عنِ الدنيا[3]

وقال فيهم بعض الشعراء فأحسن:

يا بني بَرْمكَ وَاهًّالكُـــمُ ولأيامكُم المُقْبلَـــــــــهْ

كانت الدنيا عروساً بكُـمُ وَهيَ اليومَ ثُكولُ أرملـــــه[4]

وأما الشاعر المشهور "أبو نواس" فعلى الرغم مما كان يقع بينه وبين البرامكة من عداء أحياناً حتى أنه كثيراً ما كان يهجوهم ويقسو عليهم بهجائه اللاذع. إلا إننا نجده يحزن لمصابهم ويأسى لما حل بهم فيقول:

الآن استرحنا واستراحتْ ركابُنا وَأقْصَرَ مَن يُجدي ومَن كانَ يجْتدي

فقل للعطايا: بعد فضلٍ تعطّلـــي وقل للرزايا: كلّ يومٍ تجـــــــددي

وقل للمنايا: قد ظفرتِ بجعفـــرٍ فلن تَظْفري من بعده بُمسَـــــــوّدِ

فيا لكَ سيفاً برمكِّياً مُهنَّـــــداً أُصيبَ بسيفٍ هاشميٍّ مُهَنَّـــــد[5]

ومن يتصفح ديوان أبي نواس يجد قصيدتين في الرثاء. مطلع إحداها:

---

(١) مروج الذهب للمسعودي جـ٢/ ٣٠١.

(٢) المصدر السابق، جـ٢/ ٣٠١: ٣٠٢.

(٣) المصدر نفسه، جـ٢/ ٣٠٢.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢/ ٣٠١.

(٥) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جـ٣٠/ ١٠٠٩٨. وقد نسبت تلك الأبيات قبل ذلك للشاعر " أشجع السلمي" راجع مروج الذهب للمسعودي جـ٢/ ٣٠١.

إن الذي ردّ الشبابَ كُهولا لا آملاً أبقى ولا مأمولا

ومطلع الأخرى:

ألا كم أذلّ الدهرُ من مُتَعزِّزٍ وكم ذمّ من إلفٍ حمىً وكَمّ خطَمْ.

وإن كان أبو نواس لم يوضح لنا من ذلك الذي يرثيه بهما أو بأيهما إلا أننا نشم من القصيدتين أنهما في رثاء جعفر بن يحيى والبرامكة بعامة وإن أثر التعمية والألغاز فيهما حتى لا يغضب الرشيد، وتدوم له صحبته، ويصفو له مجلسه ولا يحرم من عطاياه.(١)

وقال فيهم أبو حزرة الأعرابي، وقيل أبو نواس:

ما رَمَى الدهرُ آلَ برمكَ لمَّا أنْ رمَى مُلكَهُمْ بأمرٍ بَديعِ(٢)

إنّ دَهراً لم يَرْعَ حقّاً لِيَحْيَىَ غَيرُ راعٍ حقّاً لآلِ الرَّبيعِ(٣)

فالشاعر يعتب على الدهر لأنه لم يرع حقهم، ثم يقول أن هذا الدهر الذي لم يرع حق يحيى بن خالد البرمكي فهو غير راع أيضا حقا لآل الربيع.

وقال فيهم صالح الأعرابي:

لقد خان هذا الدهرُ أبناءَ برمك وأيُّ ملوكٍ لم تَخُنْهَا دهورُهـــا؟

ألم يك يحيى والىَ الأرض كلِّها فأضحى كمن وارتْه منها قُبورُها(٤)

ويقول أحد الشعراء يرثي الفضل بن يحيى، ويندب فضائله، التي لايستطيع أحد الوصول إليها، أو التعلق بأهدابها، والاقتراب منها، مهما أوتي من الجاه والسلطان، فهذا شيء بعيد المنال:

---

(١) ديوان أبي نواس ص٥٨٣: ٥٨٧. محمد علي حسين. مطبعة مصطفى أحمد ١٩٤٥م.

(٢) جاء في البيان والتبيين "ما رعى بدلا من ما رمى" و"فظيع بدلا من بديع".

(٣) وجاء في البيت الثاني "ذمام بدلا من حقا" و"آل بدلا من لآل" .، وراجع مروج الذهب للمسعودي جـ٢/ ٣٠١، وكذلك البيان والتبيين جـ٣/ ٣٥٢.

(٤) مروج الذهب للمسعودي جـ٢/ ٣٠١.

مضى الفضلُ والإسلامُ والبأسُ والنّدى غداةَ غدا الفضلُ بنُ يحيى إلى الحفره
فصرنَ له في قبره مؤنساتُـــــــهُ كما كنَّ أيام الحياة له صـــــــبرهْ
وأُلبست الدنيا قتاما لفقـــــــده وكانت بوجه الفضل ظاهرة النضـــرة
فقل للذي يسعى ليدرك شـــــأوَهَ لقد رُمْت أمراً دونه تُحْسَرًا لقدرهْ.(١)

كما ينصفهم شاعر آخر، فيقول يوم مات الفضل، فراع الناس وأحزنهم:

ليس نبكي عليكمُ يا بني برْ مكَ أنْ زالَ مُلْكُكُمْ فتقَضّـــــى
بل نُبَكِّيكُمُ لنا ولأننـــــــا لم نرَ الخيرَ بعدكمْ حلَّ أرضا.(٢)

وبعد فوات الأوان، ينصفهم ألد أعدائهم، الفضل بن الربيع، ويبكـــي على أيامهم، ثم ينشد متمثلا:

عتبتُ على سَلْمٍ فلما فقدتُه وَجَّربتُ أقوامَا بكيتُ على سَلْم(٣)

ولما فشل الرشيد في صرف الشعراء وإبعادهم عنهم زاد فـــي تعـــسفه، وعنته معهم وتشدد في التنكيل بهم ليحول بينهم وبين الحـــديث عـــن البرامكـــة ووصل به الأمر أن قتل بعضهم ولكنهم لم ينتهوا، أو يتراجعوا عـــن مـــوقفهم، تجاه هذه الأسرة، بل واصلوا تحديهم له وإن غيروا في وسائلهم، وطرقهم فـــي التعبير عن هذا الولاء لئلا يتعرضوا لعقاب الرشيد أو يقعوا تحت طائلته، فرحوا يقولون الشعر، دون أن ينسبوه لأحد، وأخذوا يدونونه على الجدران والخرائب، وعلى قصور البرامكة ودورهم الخالية، ليقرأه الناس ومعهم الرشيد أيضا. ممـــا فوت على الرشيد غرضه، وحال بينه وبين الوصول إلى تلـــك النتيجـــة التـــي أرادها.

خرج الأصمعي مع الرشيد يوما للصيد، بعد نكبة البرامكة، فاجتـــاز

---

(١) البصائر والذخائر – أبو حيان التوحيدي- جـ٢/ ٧٥٦. شرح وتعليق دكتور إبراهيم الكيلاني – مطبعة أطلس دمشق.

(٢) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية للدكتور/ مصطفى الشكعة ص٢٧٩، الأنجلو المصرية ١٩٦٨م.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٠.

بجدار خرب من جدران البرامكة. فرأى لوحا مكتوبا عليه هذه الأبيات:

يا منزلاً لعب الزمانُ بأهلـــه ... فأبادهمْ بتفرُّقٍ لا يُجْمَـــعُ

إن الذين عهدتُهمْ بك مـــرَّةً ... كان الزمانُ بهم يضرُّ ويَنفعُ

أصبَحْتَ تَفْزَعُ من رآك وطالما ... كنَا إليك من المعاول نَضْرَعُ ؟

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم ... وبقيَ الذين حياتُهم لا تَنْفَعُ.(١)

فبكى الرشيد لما قرأها، وأقبل على الأصمعي، يطلب منه أن يقص عليه شيئاً من أخبار البرامكة. ولا ندري من الذين يعنيهم الشاعر بقوله "بقـى الـذين حياتهم لا تنفع" أيقصد الرشيد؟ أم من ولي الوزارة من بعدهم؟ وعلى كل فقد ذهب البرامكة الذين يعاش في أكنافهم حسب رأي الشاعر ومذهبه فيهم.

ومن هذه الروايات أيضا. ما يُروى عن المرأة التي اجتازت الجسر الذي صلب عليه جعفر بن يحيى، فهالها مشهده، فرثته رثاءً حـاراً، بعـدما قالت قولتها البليغة، التي تدل على مدى تفجعها عليه، وألمها لمـصابه "أمـا والله لئن أصبحت للناس آية، لقد بلغت فيهم الغاية". ثم تأملته منشدةً، فقالت:

العيشُ بعدك مر غيرُ محـبوبُ ... ومذ صُلِبْتَ وَمِقْنَا كلَّ مطلـوب

أرجو من الله ذا الإحسانِ إن له ... فضلاً علينا وعفواً غيرَ محسوب

ثم سكتت ساعة، وعاودت تتأمله من جديد، فقالت:

عليك من الأحبّة كلَّ يـــوم ... سلامُ الله ما ذُكِـــرَ السَّلامُ

لئن أمسى صداك برأس عَيْنٍ ... على خشبٍ حباكَ بها الإمام

فمن مُلْكٍ إلى مُلْكٍ برغـــمٍ ... من الأملاك أسلَمك الهُمام.(٢)

وفي رواية أخرى، قالت هذه المرأة، بلسان فصيح "والله لئن صرت

---

(١) أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس للاتليدي ص١٨٦.

(٢) تاريخ بغداد للبغدادي جـ٧/ ١٥٨. وأمالي المرتضى جـ١/ ١٠١.

اليوم آية، لقد صرت في المكارم غاية". ثم أنشدت تقول:

ولما رأيتُ السيفَ خالطَ جعفراً ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيتُ على الدنيا وأيقنتُ أنّما قُصارى الفتى يوماً مُفارَقَةُ الدنيا
وما هِيَ إلا دولةٌ بعد دولةٍ تُخَوّلُ ذا بغْيٍ وتُعْقِبُ ذا بَلْوى
إذا أنزلَتَ هذا منازلَ رِفعةٍ من الملك حَطّتْ ذا إلى غايةٍ سُفْلى.(١)

(١) المصدر السابق نفسه، وهي أبيات للشاعر دعبل الخزاعي قالها في رثاء البرامكة وحزناً عليهم وقد تمثلت بها هذه المرأة المجهولة في هذا الموقف المثير للعواطف والأحاسيس.

رابعاً: موقف الشعراء الناقمين عليهم:

لقد حظيَ البرامكة بثناء الشعراء عليهم، فقد كانوا غرة الدنيا وتاج الخلافة العباسية. في فترة توليهم الوزارة والإمارة. ولكن طبيعة الحياة. وسنة الله في خلقه تقتضي أن يكون لكل إنسان قادح ومادح، فرضي الناس غاية لا تدرك، ولذا كان هناك من يناصب البرامكة العداء، وكذلك من يحسدونهم على ما هم فيه من نعيم وسلطان. ويتمنون زوال ذلك عنهم. ومن ثم وُجد من الشعراء من هجا البرامكة وناصبهم العداء. حتى من الذين مدحوهم وقالوا الكثير في الثناء عليهم من قبل.

فها هو ذا الشاعر "أبو نواس" الذي مدح البرامكة بالعديد من القصائد الرائعة، سرعان ما ينقلب عليهم، فيسدد لهم الطعنات قوية بهجائه اللاذع فيصفهم بالبخل بعد أن وصفهم بالجود والكرم. ويتهمهم بالزندقة ويسمهم بالإلحاد والكفر والعياذ بالله.

ومما قاله في هجاء جعفر بن يحيى وهو في أوج سلطانه وسطوته. وعلى أوثق صلة بالخليفة هارون الرشيد قوله:

عَجِبْتُ لهارونَ الإمامِ وما الذَّي ... يُرَوِّى ويرجُو فيكَ يا خلْقةَ السَّلْقِ[1]

فَفاً خَلْفَ وَجْهٍ قد أُطيلَ كأنَّهُ ... فَفا مَلَكٍ يقْضى الحقوقَ على بِئْقِ[2]

وأَعْظَمُ زَهواً من ذبابٍ على خِراً ... وأبْخلُ من كلبٍ عقورٍ على عَرْقِ[3]

أُرَى جَعْفراً يَزدادُ بُخلاً ودِقَّةً ... إذا زَادَهُ الرَّحمنُ في سَعَةِ الرِّزقِ[4]

ولوْ جاءَ غيرُ البُخلِ من عِندِ جَعفرٍ ... لما وَضَعُوهُ الناسُ إلاَّ على الحُمْقِ[5]

---

(١) السلق بالكسر: الذنب، التروية: التفكر والنظر.

(٢) البئق: منبعث الماء. وهو بفتح الباء وكسرها. والبئق: إسراع دمع العين وجريان الماء.

(٣) العرق، بالفتح: العظم الذي قد أخذ عنه أكثر لحمه.

(٤) الدقة: الحقارة والصغر.

(٥) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣/ ٣٥٤: ٣٥٥.

وكذلك وجدناه يهجو يحيى بن خالد، ويعرض بـه ويتهمـه بـالكفر والزندقة فيقول:

قُلْ ليَحْيى بنِ خَالـدِ ... يا عَدُوَّ المساجـدِ
يُوشك القَومُ أنَّ تَنَـ ... ـبْه من نوْمٍ رَاقدِ
فإذا أنتَ لا تَصُـو ... لُ بِكَفٍّ وساعـدِ
راكِباً جِذْعَ نَخْلَـةٍ ... قائماً مثلَ قَاعـدِ

ثم تزداد هوة الخلاف بين أبي نواس والبرامكة، وتسوء العلاقات إلى حد كبير، فيقطع كل اتصال بهم ويهجوهم قاطبة، فيقول:

إنِّيَ لوْلاَ شَقَاءُ جَـدِّي ... مَا مَات مُوسَى كَذَا سَرِيعَا
ولاَ طَوتْه المنونُ حَتَّـى ... أَرىَ بنى برْمَكٍ جميعـا
قَدْ رَسمَ اللهُ من خَصَـاهُمْ ... بشاطِئْ دجْلَةَ الجُذُوعَـا
هَذا زمَانُ القُرودِ فاخضَعْ ... وكُنْ لَهُمْ سَامِعاً مُطِيعَـا
كأنهم قد أتى عليهـمْ ... ما غال يعقوبَ والربيعا[1]

لا شك أن هذا الهجاء قد أوجع البرامكة، ولكنهم لم يجهروا بمعاداتهم لأبي نواس ولم يفكروا في الانتقام منه، وذلك لمكانته عند الرشيد، كما أنهم كانوا يعلمون سوء خلقه، وعدم حيائه، فعملوا على مداراته، خشية أن يسرف عليهم في الهجاء أو يتمادى فيه، مما يدلّ على رجاحة عقولهم وسعة مداركهم وتفهمهم للأمور وسياستها بحنكة واقتدار.

ومن الذين هجوا البرامكة واتهموهم بالكفر والزندقة، على الرغم من أنه كان من رجالهم المقربين، ونال الكثير من جودهم وكرمهم الأصمعي ولكن العلاقات قد ساءت بينه وبينهم، فقال يهجوهم:-

---

(١) البرامكة في ظلال الخلفاء. لمحمد أحمد برانق ص١٤٥.

إذا ذُكِر الشِّركُ في مجلسٍ أَنارتْ وُجوهُ بَني بَرْمَكِ
وإنْ تُلِيَتْ عندهُمْ آيةٌ أتَوا بالأحاديثِ عَن مَرْوَكِ[1]

وقال أخر:

لعن اللهُ آلَ برمكَ إني صِرتُ من أجلهم أخا أسفار
إنّ يكُ ذُو القَرْنَيْنِ قد مَسَحَ الأرْضَ (م) فإنّي مُوكّلٌ بالعِيارِ[2]

وقال آخر:

إنّ الفراغَ دَعاني إلى ابتناء المساجِدْ
وإنْ رَأَيتَ فيها كرأيِ يحيى بن خالِدْ[3]

ومن الذين هجوا البرامكة أيضاً الشاعر "العتابي" مع أنه كان من المقربين إليهم، ولكنه كان أحياناً ينقلب عليهم وينحرف عنهم وفيهم يقول متهماً إياهم بالإساءة إلى الإسلام:

إن البَرامكُ لا تَنفكَ أنجيةً بصفحة الدين من نجواهمُ نَدبُ
تجرَّمتَ حججٌ منهم ومُنْصلُهم مُضَرَّجٌ بدم الإسلام مُحْتَضِبُ[4]

وأما الشاعر "أبو الهول الحميري" فقد هجا جعفراً ورماه في دينه، واتهمه بالسجوسية فقال:

أصبحتُ محتاجاً إلى الضَّرْبِ في طَلَبِ العُرْفِ إلى الكَلْبِ
إذا شكا صَبٌ إليه الهَوى قال له: مالي وللصَّبِّ

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣/ ٣٥٠. ومروك: اسم رجل من الأعاجم له في الأعاجم تواليف وصوابه "مزدك" ومزدك صاحب المزدكية.

(٢) المصدر السابق، جـ٣/ ٣٥٠: ٣٥١. ومسح الأرض مسحا ومساحة: زرعها وقاسها. والعيار: مراجعة الميزان والمكيال ويلحق بهما مراجعة المساحة.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣/ ٣٥٠: ٣٥١.

(٤) زهر الآداب للحصري جـ١/ ٦٢٠.

أعْني فتىً يُطعَنُ في دينــه يَشِبُّ معْهُ خَشَبُ الصَّــلْب
قد وقَّح السبُّ له وجْهَــه فصارَ لا ينحاش للســبّ[1]

وأما "أبو العتاهية" الذي عاش أيام البرامكة، وشاهد عن كثب مـا أصابهم، إلا أنه لم يمدحهم أو يرثيهم كغيره من الشعراء. لكننا نجد أنه قـال بعض الأشعار التي أشار فيها إلى مصابهم، متخذا مما أصابهم العبرة والعظة فكان يعظ ويزهد في الدنيا، ضارباً المثل بما وقع لهم، وداعياً إلى الاتعـاظ والعبرة دون أن يشيد بهم أو يعدد بعض مناقبهم ومن ثم نشتم في شعره ريح التشفي بما أصابهم ومن ذلك قوله:

قُولا لمن يَرْتجي الحياةَ أمَــا في جعفــرٍ عِبْرةٌ ويَحْياهُ
كَانَا وَزيرىْ خَليفة الله هــا رون هُماماً هُمــا خَليلاَهُ
فَذَاكمُ جَعْفَــــــرٌ برُمَّته في حالقٍ رَأسُه ونصفَــاه
والشيخُ يحيى الوزيرُ أَصْبَح قَدْ نَحَّاهُ عن نَفسه وأَقْصــاه
شُتِّتَ بعدَ التجميعِ شَمْلُهُــمُ فأَصْبَحُوا في البلادِ قد تَاهوا
كَذَاك مَنْ يُسخطُ الإله بمــا يُرضي به العَبْد يَجْــزِه اللهُ
سُبْحان مَنْ دَانتِ الملوكُ له أَشْهَد أَنْ لا إلهَ إلاّ هــو
طُوبَى لمن تَابَ بَعْدَ غِرَّتــه فَتَاب قَبْل الممات، طُوبَاه[2]

وبذلك يكشف لنا الشاعر عن بغضه وكراهيته للبرامكـة، ونقمتـه عليهم، فيتشفى منهم، ويتخذ مما أصابهم ونزل بهم من مذلة وهوان مادة يعظ الناس بها. لعله بذلك يرضى من يعمل لحسابهم من أعداء البرامكة، فهـو لا يذكرهم إلا ليعظ الناس بما أصابهم وما حل بهم من نكبة يدلنا على ذلك أنـه

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣/ ٣٥١.

(٢) راجع تاريخ الطبري جـ٨/ ٣٠١-٣٠٢.

عندما استنشده الفضل بن الربيع يوما، أنشده قائلا:-

ولّى الشَبابُ فما له من حيلة وكَسَا ذُؤابتيَ المشيبُ خمارَا

أين البرامكةُ الذين عَهِدْتمْ بالأمس أعظَمَ أهلِها أخطارا

"فلما سمع الفضل ذكر البرامكة، تغير لونه ورأيت الكراهية في وجهه فما رأيت منه خيراً بعد ذلك".[1]

وذلك ما كان يخشاه أبو العتاهية، ويحاول دائماً الابتعاد عنه فإذا كان ذلك ما أصابه لمجرد ذكره للبرامكة والاتعاظ بهم فكيف إذن لو مدحهم؟ أو ذكر شيئاً من أمجادهم.

تلك هي بعض الأشعار التي جاءت في هجاء البرامكة والتشفي بهم واتخاذ العبرة والعظة مما أصابهم. إلا أننا لا نستطيع أن نثق في صحة ما تضمنتها من اتهامات للبرامكة بالبخل أو الإلحاد والزندقة، لأن جمهرة المؤرخين والأدباء على خلاف ذلك. ولم نجد لهم مواقف وآراء تؤيد هذه الاتهامات أو تثبت صحة ما نسب إلى البرامكة من انحراف عن الإسلام وإن كنا نميل إلى انحراف عن الخلافة العباسية، على الرغم من تظاهرهم بالولاء لها، وما كان وصفهم بالزندقة والبخل إلا نوعاً من المسايرة للرشيد، وتبرير لهواه، أو تجسيم لمواقف خاصة، يشتم منها ذلك، ليتقبل الناس ما وقع بهم دون استنكار أو ثورة.[2]

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني جـ٤/ ١٣٠٣.

(٢) كتاب مجالس الرشيد للدكتور محمد عبد الرحمن شعيب ص١٩٧. الطبعة الأولى – طبع دار التأليف بمصر ١٩٧٩م.

خامساً: الخاتمـــــــــــــــــة

لقد قام البرامكة بدور عظيم في ثقافة العصر العباسي: حيث أخلصوا لثقافتهم الجديدة وعملوا من أجل ازدهارها وتفوقها.

فالأسرة البرمكية أسرة أدبية. هام رجالها بالأدب والأدباء وشـــغفوا بالثقافة والفكر، ولم يدخروا جهداً في سبيل النهوض بالحياة الأدبية والثقافية. فكثر الشعراء والأدباء وازداد عدد الكتاب والنقاد وأقبل العصر على نهـــضة ثقافية عظيمة. وبذلك أسهم البرامكة في ازدهار الحياة الأدبية والثقافية وبعثوا في أوصالها الحياة والحركة. فقد كانوا غرة في جبين الدولة العباســـية ودرة عظيمة في تاج الخلافة الإسلامية بما قدموه للحضارة والفكر، وبما أســـهموا به في الثقافة والأدب.

ومن ثم فقد أفاض الشعراء في مديحهم والثناء عليهم وأجـــادوا فـــي وصفهم بالكرم والجود وبالشجاعة ورجاحة العقل وحسن التصرف. وحـــب الرعية وحسن معاملتها وذلك لما اتصفوا به من صفات الرحمة واللين.

لقد تناولت تلك الأشعار الحديث عـــن مكانـــة البرامكـــة وفـــضلهم ووصفت ما تحقق لهم من جاه وسلطان. ومهما يكن في هذه الأشـــعار مـــن مغالاة ومبالغة فلن نستطيع أن نصمها كلها بأنها كانت شعر ممـــالاة ونتـــاج تزلق ونفاق، ومما تضيق به النفوس وتثقل على الأسماع والقلوب. ولكنهـــا دون أدنى شك قد بلغت درجة عالية من البلاغة والفصاحة وحسن البيان في معظمها كما تميزت بالجودة والإبداع فأرخت لفترة زاهية من فترات أدبنـــا العربي حيث مجدت المعاني الكريمة والصفات الحميدة التـــي عُـــرِفَ بهـــا البرامكة طوال حياتهم، وعملوا جاهدين على إشاعتها وانتشارها بين النـــاس خلال فترة توليهم الوزارة وسيطرتهم على زمام أمور الخلافة.

وأما الشعراء الذين رثوا البرامكة فقد جاءوا على عدة أصناف فمنهم

من كان وفيا لهم لا يخشى ما يجره عليه ذلك الوفاء من غضب الرشيد.

ومنهم أيضا من كان يخشى الرشيد ويخاف سلطانه، ولكنه ألغز في رثائه لهم حتى لا ينكشف أمره عنده أو ينسب هذه الأشعار له، وإنما أرسلها دونَ عزوٍ لأحد.

وبعض من هذه الفئة الأخيرة كان يدونها على الجدران والخرائب وعلى قصور البرامكة ودورهم الخالية حتى يراها الناس ومعهم الرشيد نفسه.

ووجدنا أيضا من الشعراء مَنْ رثاهم على الرغم من عدائه لهم وقد يكون ذلك أصدق أنواع الرثاء وأخلصه.

وربما كان لشدة الرشيد وقسوته على من رثاهم من الشعراء أثرها في مبالغة الشعراء في رثائهم، والإخلاص لهم.

وقد وجد من الشعراء من تشفى بهم وفرح لما أصابهم ولكنه رأى فيما أصابهم العبرة والعظة.

والذي نظنه أن معظم هذه الأشعار جاءت صادقة في التعبير عن مشاعر وأحاسيس هؤلاء الشعراء الذين ظلوا على ولائهم للبرامكة. فلم يرهبهم وعيده أو يؤثر فيهم تهديد، كما لم يُغرهم عطاء، أو تفتنهم هبة، بل ظلوا على درب الوفاء مخلصين لهم على الرغم من ذهاب نفوذهم وانقضاء سلطانهم. ومن ثم شاعت هذه الأشعار، وأصبحت أنغاماً تردد وألحاناً تنشد عبر العصور والأجيال. فهي تصور عاطفة إنسانية جياشة نحو البرامكة.

وبذلك يمكننا القول بأن كل ما قيل في البرامكة من شعر سواء في مديحهم أو رثائهم، أو في هجائهم. يشكل ديواناً شعرياً ضخماً في أدبنا العربي، ديواناً يحمل بين طياته الكثير من المعاني الإنسانية والقيم الخلقية التي اتصف بها هؤلاء القوم وحاولوا إذاعتها ونشرها بين الناس فما كان من

الشعراء إلا الوفاء والإخلاص لهم بذلك الشعر الجيد الذي جاء على ألسنتهم معبراً عن إحساسهم وعواطفهم.

ونستطيع أن نخرج من بحثنا هذا بعدة نتائج. من أهمها ما يأتي:

أولاً: أسرة البرامكة أسرة أدبية. عُرف رجالها بحبهم للأدب والأدباء. فأسهمت في ازدهار الحياة الثقافية والأدبية والسياسية وبعثت في أوصالها الحياة والحركة فكثر الشعراء وازداد الكُتاب والنقاد فشهدت أيامهم نهضة ثقافية وارفة الظلال.

ثانياً: تُعد أسرة البرامكة من أعظم الأسر التي ساندت العباسيين ووقفت بجانبهم في تكوين دولتهم، وظلت أعمدتها القوية، وواجهتها السياسية والأدبية.

ثالثاً: حقق البرامكة مكانة أدبية عظيمة وذلك لما تمتعوا به من قدم راسخة في الأدب والبلاغة وفصاحة البيان، فهم ذو ذوق أدبي وحس لغوي رفيع.

رابعاً: أولى البرامكة الشعر والشعراء عناية خاصة، ورعوهما باهتمام زائد فكانوا أول من أقام ديواناً خاصاً به. كانت مهمته الأولى خدمة الشعراء وملاحظة شئونهم، وقضاء مصالحهم حتى يتفرغوا لقول الشعر والإجادة فيه. وكان أول من تولى هذا الديوان الشاعر"أبان بن عبد الحميد اللاحقى".

خامساً: مع ما تميزت به أسرة البرامكة من كثرة رجالها إلا أن أشهر هؤلاء الرجال وأكثرهم تأثيراً وأبرزهم دوراً فى الحياة السياسية والأدبية في ذلك العصر. هم خالد بن برمك ويحيى بن خالد ثم ولداه الفضل وجعفر.

والذي ساعدهم على تحقيق ذلك التفوق، ما كانوا يتمتعون به من ثقافة وأدب، بالإضافة إلى ما طبعوا عليه من أمانة وخلق، وما تميزوا به من حصافة عقل ورجاحة فكر وغيرها من صفات الفطنة والنبل.

سادساً: إن الشعراء الذين هجوا البرامكة كان معظمهم من الذين تربطهم علاقة قوية بهم ونالوا كثيراً من أعطياتهم وهباتهم، ولكنهم انقلبوا عليهم بهجاء لاذع، واتهموهم بالزندقة والإلحاد لشيء في أنفسهم، وغاية لهم في حياتهم.

سابعاً: يلاحظ قلة الشعراء الذين هجوا البرامكة قياسا على الشعراء الذين مدحوهم أو رثوهم مما يدلنا على مكانة هؤلاء القوم في نفوس الشعراء وعيونهم ومن ثم صدق ما جاء في مديحهم أو رثائهم من شعر.

تم بحمد الله

ثبت المصادر والمراجع

١. الأدب في موكب الحضارة الإسلامية. للدكتور/ مصطفى الشكعة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م.

٢. إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس. لمحمد دياب الأتليدي – طبع المكتبة التجارية بمصر.

٣. آمالي المرتضى. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم– طبع بيروت.

٤. البرامكة في ظلال الخلفاء لمحمد أحمد برانق– دار المعارف بمصر.

٥. البصائر والذخائر – أبو حيان التوحيدي– شرح وتعليق الدكتور إبراهيم الكيلاني – مطبعة أطلس بدمشق.

٦. البيان والتبيين للجاحظ. بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون – الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٧. تاريخ بغداد – للبغدادي– مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م.

٨. تاريخ الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – طبع دار المعارف بمصر ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٩. الحيوان تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. الهيئة العامة لقصور الثقافة.

١٠. خاص الخاص – للثعالبي– منشورات مكتبة الحياة – بيروت عام ١٩٦٦م.

١١. ديوان أبي نواس – نشر محمد علي حسين– مطبعة مصطفى أحمد ١٩٤٥.

١٢. دائرة المعارف الإسلامية لمحمد فريد وجدي – طبعة مصر سنة ١٩١١م.

١٣. ذيل الثمرات لابن حجة الحموي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

الطبعة الأولى- مطبعة الخانجي ١٩٧١م.
١٤. زهر الآداب وثمر الألباب – للحصري القيرواني. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد- المكتبة التجارية بمصر – الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.
١٥. شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي – مكتبة القدس بمصر عام ١٣٥٠هـ.
١٦. شرح ديوان صريع الغوانى لمسلم بن الوليد، تحقيق الدكتور سامى الدهان، طبع دار المعارف بمصر.
١٧. صبح الأعشى – للقلقشندي – طبع دار الكتب المصرية ١٣٤٠هـ.
١٨. طبقات الشعراء المحدثين – لابن المعتز- تحقيق عبد الستار أحمد فراج طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.
١٩. العصر العباسي الأول للدكتور/ شوقي ضيف – الطبعة الثامنة دار المعارف.
٢٠. العقد الفريد – لابن عبد ربه تحقيق الدكتور/ مفيد قميحة طبع دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.
٢١. العمدة لابن رشيق القيرواني. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد- الطبعة الرابعة ١٩٧٢م دار الجبل – بيروت – لبنان.
٢٢. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني مطابع مؤسسة دار الشعب ١٩٦٩م.
٢٣. كتاب مجالس الرشيد للدكتور/ محمد عبد الرحمن شعيب- الطبعة الأولى – طبع دار التأليف بمصر ١٩٧٩م.
٢٤. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية" للشيخ محمد الخضري المكتبة التوفيقية. تحقيق وتعليق إبراهيم أمين محمد.

٢٥. مروج الذهب للمسعودي. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م. كتاب التحرير.
٢٦. معجم الأدباء – لياقوت الحموي- مطبعة دار المأمون بالقاهرة ١٩٣٧م.
٢٧. معجم الشعراء للمرزباني – تحقيق عبد الستار أحمد فراج الهيئة العامة لقصور الثقافة.
٢٨. الوزراء والكتاب – للجهشياري- تحقيق مصطفى السقا وآخرون – الطبعة الأولى – مطبعة الحلبي بمصر ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.
٢٩. وفيات الأعيان – لابن خلكان – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصرية عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.